إيضاح أسرار علوم المقربين

تأليف

قطب الزمان ومربى المريدين

الشيخ محمد بن عبد الله بن شيخ العيدروس

تحقيق

دكتور محمد سيد سلطان

جامعة الأزهر الشريف

الناشر : دار جوامع الكلم - ت : ٥٨٩٨٠٢٩

إيضاح

أسرار علوم المقربين

تأليف
السيد الشريف قطب الزمان ومربى المريدين
محمد بن عبدالله بن شيخ العيدروس
رضى الله تعالى عنه

الناشر : دار جوامع الكلم - ١٧ شارع الشيخ صالح الجعفرى -
الدراسة - القاهرة - تليفون : ٥٨٩٨٠٢٩

ترجمة المؤلف

هو سيدنا محمد بن عبد الله بن شيخ بن عبد الله بن شيخ ابن الشيخ عبد الله العيدروس المتوفى [بسورت[1]] المحروسة أحد العلماء العارفين والأئمة المجتهدين.

مولده

ولد بمدينة (تريم) سنة سبعين وتسعمائة يجمعها بالجمل أحرف عديدة - إنا أعطيناك الكوثر.

حفظه القرآن وتلقينه العلوم والتصوف

حفظ القرآن ونشأ في حجر والده، وأرضعه ثدى خالده وتالده وقرأ عليه عدة علوم، وتخرج به في طريق القوم، ولما سمع بصفاته جدّه شيخ بن عبد الله طلبه إليه واستدناه فرحل إليه وهو "بأحمد أباد" وهى فى بلدان الهند أشهر بلاده، واجتمع به فيها سنة تسع وثمانين وتسعمائة، وأشار إلى ذلك جدّه فى بعض قصائده بقوله : × قدومك حافظاً للشمل فاجمع × فإن عدد "حافظ" كذلك، ولازم جده في جميع دروسه وأحواله واقتدى به فى أقواله وأفعاله فبلغ ما لم يبلغه المشايخ الكبار، وبرع فى الفضائل بارعة لا يشق لها غبار، وقرأ عليه فى كثير من العلوم عدة شروح ومتون وتخرّج به.

لبسه الخرقة الشريفة

وألبسه الخرقة الشريفة وصافحه المصافحة الشهيرة المنيفة وحكمه التحكيم التام، وأذن له فى الإلباس والتحكيم الأذن العام، وجعله وليّ عهده، والقائم مقامه من بعده، ثم انتقل جده شيخ المذكور سنة تسعين

(١) أحد مدن أفغانستان.

وتسعمائة فقام بمنصبهم الكريم أتمّ قيام من إطعام الطعام والنفع العام للخواص والعوام، وأنفق ما كان يمونه جده من أهل الهند وأهل حضرموت وأجرى، المواصلة لما كان يواصله جده ولو مرة قبل الموت، ولما سأل عنه والده عبد الله السيد الولي أحمد بن علوى باجحدب أجابه بقوله: الذى أعتقده فيه أنه أحسن من أبيه فسجد والده شكراً، وقال هذا الذى أودّه وأتمناه، ولا يودّ أحد أن يكون أحد أحسن منه إلا البارّ من بنيه، ولو كان ذلك الغير أباه، وناهيك بها شهادة بفضله، واعترافاً بسموّ مقداره ومما كتبه عمه الشيخ عبد القادر إلى أبيه الشيخ عبد الله رضى الله تعالى عنهما قوله: يكفيك فخراً يا عبدالله خروج هذا الولد من صلبك.

مؤلفاته

ومن مؤلفاته كتاب (إيضاح أسرار علوم المقربين) هذا، ومن وقف عليه دله على جلالة قدر مؤلفه فهو كتاب نفيس فى علوم المعاملة وأسرارها، فجزاه الله تعالى عن سالكى الطريق خيراً.

تلامذته

ومن تخرج به الشيخ جعفر الصادق والسيد الجليل عمر باشيبان وغيرهما قدس الله تعالى سره ونفع به وبعلومه آمين، وبعد انتقال والده أجرى ما كان يجريه والده من نفقة وكِسوة وغيرهما وكان الوارث لأبيه وجده وحامل راية المفاخر من بعده، ثم ارتحل من(أحمد أباد) إلى (بندر سورت) واستوطنه فاشتهر كل الاشتهار، وظهر ظهور الشمس فى رابعة النهار، واعتقده أهل تلك الديار المسلمون منهم والكفار، وكان سلطان الهند يعرف قدره ومحله ومكانه ويرجحه على سائر أهل زمانه، وكان مع كثرة مدخوله لا يفى ذلك بنفقته، وربما زاد عليها ضعفين، وأكثر ذلك بالدّين.

نفع الأمة بعلومه وبطريقته

وكان قطب الشريعة وأساسها وقلب الحقيقة إذا صلح صلحت رءوسها، وكانت الطلبة ترحل من الشرق والغرب إليه، وتتمثل بين يديه، فشيد دروس العلم بعد درسها، وأحيا مواتها حتى لاح نور شموسها، فانتفع كثير من الطالبين، المقيمين منهم والوافدين.

زهده وورعه

وكان مواظباً على سنة سيد المرسلين، وطريقة سلفه الصالحين. وكان من أكابر الزاهدين، والعلماء الورعين، حافظاً للسانه، موزعاً لأوقاته وأزمانه، ولا اختلف فيه اثنان.

وفاته رضي الله تعالى عنه

توفي إلى رحمة الله تعالى سنة إحدى وثلاثين وألف يضبطه عدد "لاح بالهند طيباً" ١٠٣١ ودفن (ببندر سورت) وبنى عليه الخواجا زانيق قبة عظيمة، وبنى عندها مسجداً وبركة ماء وأجرى لمن يقرأ عليه أجره، وأوقف على ذلك ضياعاً وأرضاً ورباعاً، وقبره فيها معروف كالشمس في رابعة النهار، وأشهر من علم على رأسه نار، وتأتي إليه الأنذر من جميع الأقطار، ومن زاره بحسن نية وسلامة طوية أعطي سؤله، ونال مأموله ونواله، إن شاء الله تعالى.

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ

خطبة الكتاب

الحمد لله رب العالمين. وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وآله وصحبه أجمعين.

[**أما بعد**]

فهذا كتاب جليل الموقع، عزيز المأخذ، ألفناه لذوى البصائر والفهوم، الذين أهلوا للنظر فى دقائق العلوم، وكتابنا هذا مشتمل على إيضاح طريق السالكين، وذكر طرف من أسرار علوم المقربين، ويصلح كتابنا هذا لأصحاب الهمم العالية، والأنفس الفاضلة، وكنت متوقفاً عن تأليفه لكون الوقت لهذا الفن غير مناسب ، حتى استنهض عزمى له إلى ما أرجوه من الأجر فيه، عسى أن يعثر عليه من يناسب حاله ، فيفهم ما أودعناه هذا الكتاب من الأسرار العجيبة، ولولا الذى قد اختص به كتابنا هذا من العلوم التى قد استنبطها فكرى قبل أن توجد فى الكتب لم يكن لتأليفه معنى ، لكثرة التصانيف ، وانتشار العلوم ، وهذه المعانى كما قيل:

يقول من يطرق أسماعه ... كم ترك الأول للآخر

أثر الهوى على النفس

ومن كانت له أنسة بالكتب، وما ألفه الناس قبلنا عرف ما اختص به هذا الكتاب من المعانى الغريبة، والعلوم الغامضة، والله تعالى ينفع به، ويأجرنى فيه بمنة وسعة طوله.

واعلم أيها الأخ أنا قد منحناك فى هذا الكتاب علوماً يجب التنبيه لها والإصغاء إليها، وإذا وفقت لفهم الأسرار التى أوردناها أرشدتك إلى الطريق الدينية والمصالح الدنيوية، لأن كتابنا هذا مؤسس من أسرار الحق - تعالى - على ما قضت به العقول السليمة والآراء الصائبة، ومتى وفق العبد للمعاملة بشىء من هذه الأسرار التى قد أوردناها وجد فى نفسه زيادة رغبة وانشراحاً، ومتى تمكن العبد أن ينظر بالعقل ويسلم من الهوى بانت له الأمور على حقائقها، ولكن ذلك عزيز ، لغلبة الأهواء على الأنفس واستيلائها عليها، فالتخلص من الهوى عسير جداً، ولكن قد لا يحس به الإنسان لخفائه وغموضه ، ولا يتمكن من فهم ذلك من نفسه إلا الأبطال أصحاب العقول الراجحة ، لأن الأهواء غذاء الأنفس، والأنفس متشبثة بها فيعسر خلاصها منها، فجانب الهوى ونزه نفسك عنه فإنه يشينك فى دينك ومروءتك كما قيل:

إذا أنت تابعت الهوى قادك الهوى ... إلى كل ما فيه عليك مقال

حقيقة الهوى وأقسامه

فإذا نظرت فى الأشياء وميزتها وجدت الهوى أصل كل فتنة وبلية على اختلاف أحواله، لأنه مصدر الأباطيل ومنشأ الأضاليل وله حالة تشبه بالسكر ،تعترى الإنسان فتمنعه من التمييز ؛ لما غلب على عقله من نشوة الهوى فليتنبه له الفطن ليحسم مادّته بمجاهدة ومخالفة، فحقيقة الهوى : هو الميل إلي الباطل ، وهو خلق النفس وسجيتها، فجميع ما تميل إليه الأنفس من الأباطيل فهو الهوى، **وهو على قسمين:**

أحد القسمين ما يرد على الإنسان من دواعى الشهوات ، كنحو ما تميل

إليه النفس من هذه الأشياء التي تغلبها وتقهرها ويتهالك الناس في طلبها من شهوات الأنفس، وهي أمور مسترذلة مستقبحة تتشرد أنفس ذوي المروءات عنها حفظاً لأديانهم، وتنزيها لمروءتهم، وصيانة لأعراضهم، ومراعاة لعقولهم، فالعقلاء يثبتون عند غلبة الهوى ومنازعة الأنفس رصانة وتوقراً ونظراً في العواقب، وأرباب العقول السخيفة والأنفس الضعيفة تقهرهم أنفسهم ويعجزون عن ضبطها فتلقيهم أهواؤهم في القبائح والفضائح، ولعمى قلوبهم واستغراقهم في سكر الهوى ما يحسون بقبيح ما يأتونه.

القسم الثاني من الهوى، وهو أردأ القسمين، وهو ما يعتري الإنسان من الهوى عند الغضب فإن تلك الحالة نوع من الهوى أيضاً، وهذا الهوى ربما كان أشد من الهوى الذي يعتري الإنسان عند دواعي الشهوات، لأن هذا الهوى الذي يرد على النفس عند الغضب هوى قاهر صعب المداراة لا يثبت له إلا الأبطال وأصحاب العقول السليمة، ومن الهوى أيضاً ما يعتري الإنسان عند الكبر والبذخ، وهذا أيضاً رديء مفسد للدين محبط للأعمال إلا أن هذا الهوى دون الذي ينشأ عند الغضب لأن الهوى الوارد مع الغضب يزلزل النفس ويزول معه التمييز ويعتري النفس معه الطيش والرعونة، وهذا أشد الأهواء .

فاعلم، وكل هذا التبيان الذي تقدّم ذكره توطئة لحالة أذكرها لك، وهو أن الخلص من الأبدال إنما نالوا المنزلة عند ربهم بمجانبة الهوى أصلاً، إذ لا شيء من أقسام الهوى يخرج عن قسم الباطل، فأصحاب الحق - تعالى - ملتزمون بالحق، والحق مجانب الباطل، وأصحاب الحق يعلمون يقيناً أنهم متى قاربوا [1] شيئاً من الهوى بعدوا عن الحق - تعالى- بحسب ذلك،

---

(١) وفي نسخة قارفوا .

فشأنهم أخذ الضرورة من الأشياء وما زاد عن الضرورة فهو عندهم من قسم الهوى، يجرى ذلك فى الأكل والنوم والكلام ونحوها وكذا يحفظون أنفسهم عن الأخلاق الخاصة بالرب تعالى كالتجبر والتكبر، فليس لأحد من العباد أن يقارب شيئاً منها وإن كان ذا سلطان ومقدرة.

أما الغضب فهو بلية عامّة شاملة للبشر قلّ أن يخلو أحد منه، فقد يعترى الإنسان ويغلب عليه، لكن الإنسان مأمور بمجاهدة نفسه عند الغضب، وليس له أن يبطش عند الغضب فإن ذلك شأن الجبارين، وقد روى أن الرب - تعالى - قال فى خطابه لموسى عليه السلام: «ما خلقت خلقاً ينازعنى فى ملكى غير النفس، فإن أردت رضائى فخالفها». فالهوى بلية عظيمة ابتلى الله -تعالى- بها خلقه كما شاء، فهو مخلوق فى جبلة الإنسان والإنسان مقهور له مبتلى به، وهو مع ذلك مأمور بمجاهدته والتخلص منه، هذا على قدر ضعف الإنسان وتسلط الهوى عليه، فمن يستطيع الخلاص من حبائل هذه الفتن إلا من عصمه الله -تعالى- برحمته،.

وطائفة من رجال الحق -تعالى- قد بالغوا فى المجاهدات، فآثروا بضروراتهم: كما يحكى عن بعضهم أنه اشتهى على أهله ثريداً، فلما حضر عند إفطاره قال احملوه إلى أيتام فلان فآثرهم به عند الاضطرار لله تعالى، وكذا من جاهد نفسه عند الغضب، وقد أمكنت القدرة فيذكر الله -تعالى- فيؤثر على هواه معاملته مع الله تعالى، فهذا أبلغ الأعمال، وهى الأعمال التى تخرق الحجب وتوصل العبد إلى ربه بسرعة، فمن أحب التقرّب إلى الله -تعالى- فليؤثره على نفسه ليعامله بالفانى اليسير ليعوّضه عن ذلك بالباقى النفيس: فإن الرب - عز وجل- يحب من العبد أن يؤثره على نفسه: فالعبد إذا فعل ذلك فقد قام مقام العبودية بالحقيقة، وهذا المقام هو مطلوب الأبدال وعمدة الخلص من الرجال، حيث لا يبقى للعبد مع ربه إرادة، فهذا هو العبد حقيقة.

فاعلم واحذر مداخل الهوى فإنها صعبة التعلق بالقلوب قد تكون فى العابد وهو لا يحس بها ، وقد تفسد عليه عمله وهو لا يدرى ، وكذا صاحب العلم إن لم يتيقظ لنفسه وإلا غلب عليه هواه فيخبطه ويضله ، والهوى سرّ عجيب ، وهو فنون شتى ، فمنه شيء يتعلق بالإنسان فيكسبه حالة شبيهة بالجنون كما ترى من هؤلاء المشايخ الشحاح المسنين قد أغروا بجمع المال كما ترى أحدهم كالمجنون فيما يحاوله ، لأنه يأتى أشياءً مستقبحة تذهب دينه ومروءته ويصير أحدوثه بين الناس وهو لا يحس بذلك ، لما قد أسكره من نشوة الهوى ، وكذا هؤلاء الذين يغرون بالصور الحسان وشأنهم التعشق ، وهذا يتولد عليهم من الفراغ ورخاوة النفس ، فقد تعرض لأحدهم فى عشقه حالة تشبه الجنون يزول معها تميزه ويفسد رأيه فيأتى القبائح ، وهو لا يحسها لما قد غلب عليه من نشوة الهوى ، فهو كما قيل :× غط هواك وما ألقى على بصرى × نعوذ بالله من مضرة هذه الأمور .

واعلم أن لهذه الحالة سلطاناً على النفس يقهر الأنفس الدنية الضعيفة ، وليس لها سلطان على الأنفس القوية العالية ، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى :

إنا إذا مالت دواعى الهو ... وأنصت السامع للقائل
واصطرع القوم بألبابهم ... نقضى بحكم فاصل عادل
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نلظ دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا ... فنخمل الدهر مع الخامل

دخول الغلو في الهوى

والغلوّ أيضاً محسوب من قسم الهوى، وهو قسم ردئ، لأنه يتعلق بالأديان فيدنسها ويوحشها، ويعترى أرباب الغلوّ فى الدين نوع طيش فيما يحاولونه من تدينهم فيصير شأنهم الخصام والجدال فى الدين ويصير دأبهم التعصب والتبغض لمن خالفهم فى مذهبهم، ويصير تدين أحدهم التطلع إلى معايب الناس للتنقيص بهم والإزراء عليهم وهذا ردئ جداً متلف لدين العبد ينبغى أن يحذره أشد الحذر، فهؤلاء الغلاة يفرطون فى تعظيم أئمتهم ويتهالكون فى حبهم فيخرجون إلى الأمر المنهى عنه، إذ المأمور به فى محبة الأئمة وأهل الدين التوسط وترك الغلوّ. قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لا يكون حبك كلفاً ولا بغضك تلفاً، وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم «لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم[1]»، وقال على رضى الله عنه: عليكم بالنمط الأوسط، يتبعكم التالى ويرجع إليكم الغالى،.

فعليك أيها الأخ بطريق الخواص ودع عنك أمر العموم إذ ليس فى أيدى أكثرهم إلا الرسوم والعادات، فقصارى أمورهم مراعاة صور الأعمال مع إهمال التلمح لأسرارها، وأما العارفون فإنهم معتنون بأسرار الطاعات ومحاسن العبادات، وأصحاب الحق تعالى هم ذوو العقول التامة والصدور السليمة، فبالعقول تتبين مراتب الرجال، وبصحة النظر تتفاوت طبقات العمال، أصل هذا ما روته السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها «إن رسول اله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا بلغه اجتهاد رجل سأل كيف عقله»[2].

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم.

(٢) رواه الطبرانى عن أبى الدرداء.

واعلم أن هذا الكتاب مأخوذ بالحقيقة من محاسن معانى السنة ودقائق حكم الشريعة ، فهو علم العارفين وفقه السالكين أرباب المجاهدات والأعمال لا أبناء قيل وقال ، فشأن العارفين الاستناد بالصدر الأول من الصحابة والتابعين، وعقائدهم عقائد السلف الماضين، لا انحراف لهم عن سنتهم، ولا مخالفة لهم عن أنحائهم ومقاصدهم، فالزم السنن وعض عليها بالنواجذ وجانب البدع واهجر أهلها ترشد إن شاء الله - تعالى- .

تزكية النفس وتهذيبها
هى الطريق إلى الله تعالى

الفطن ذو التميز الذى يحكم أعماله إحكاماً لتستقيم أموره وتصلح شئونه، فأوّل ما ينبغي للعبد أن يعتنى به في سلوكه تزكية نفسه وتهذيبها وتهذيب أخلاقه ليكون هذا من السالكين مقدّماً على الإكثار من نوافل العبادات من صلاة وصيام ونحوهما، إذ لا ينبغي للعبد أن يتوجه إلى الله تعالى بقلب دنس ونفس غير زكيين فإنه يتعب نفسه فى أمور ربما كان عاقبتها أن يرجع القهقرى، لأن الإنسان إذا لم يكن على بصيرة فى أموره أوشك أن يتحير فربما أدّت به الحال إلى الانحطاط والانعكاس، فينبغي للإنسان أن يراعي سره ولا يزال محافظاً على وقته فلا يترك قلبه شارداً خالياً عن فكر يستخرج به المعارف والعلوم، وكذا لا يخلى فعلاً من أفعاله عن نية صادقة فإن النية روح العمل والقلب إذا خلى عن الفكرة المستنبطة والنيات الصالحة يصير شبه الدابة الشاردة، فيصير دأب الإنسان إذ ذاك إضاعة زمانه فى البطالة ويستروح إلى مكاثرة ذوى الجهالة فيتولد على الإنسان من ذلك أحوال سيئة وأخلاق ذميمة، فلينتبه العاقل لذلك وليمعن بمراعاة قلبه.

واعلم أن أعلى أحوال القلوب هو دوام اتصالها بالرب تعالى، فهذا هو أساس الأعمال ومنبع صالح الأحوال فعمارة الباطن هو تعلق السر بالله تعالى، وخرابه دوام غفلته عن الله - تعالى -، فإذا غلب على القلب اتصاله بالرب تعالى تيسرت على صاحبه أنواع القربات وفنون الطاعات.

وجوب حفظ القلب وصلاحه

واعلم أن القلب شبهه شبه المرآة ينتقش فيها كل ما يقابلها، فينبغي للإنسان أن يحفظ قلبه كحفظه سواد عينه، فليجانب العبد المتخصص مقاربة اللئام والسفهاء، وأصحاب الشرور، فإن أحوالهم تؤثر في القلب وتطفئ نور بصيرته، وينبغي لطالب الحق أن يقصد الأشياء التي تصلح قلبه فإن لصلاح القلب أسباباً وذاك بإدامة الفكر المستخرج للحكم والأسرار، وبالإكثار من الذكر يتواطأ عليه القلب واللسان، وكذا الهيئات الظاهرة من الزيّ والملبس والمطعم والكلام وسائر الأحوال الظاهرة تؤثر في القلب تأثيراً بيناً فلا ينبغي لطالب الحق أن يهمل شيئاً من أحوال قلبه.

فأنت أيها الأخ إذا أحكمت أمور سلوكك بنيت على أساس وثبتت قواعد أعمالك فسرت على هداية فلا تزال في سلوكك متزايد الحال كلما أتى عليك يوم رأيت فيه الزيادة والانتعاش، وهؤلاء الذين يتخبطون في سلوكهم ما سببه إلا إهمالهم قواعد السلوك وإغفال الترتيب في المعاملات.

كيفية الاقبال على الله تعالى

فمن أراد الإقبال على الله -تعالى- فليرتب أعماله ترتيباً فليبدأ أوّلاً بالزهد في هذه الدنيا الدنيئة، ومعنى الزهد هو التقلل من الأشياء وتعلق الزهد بالباطن أكثر من تعلقه بالظاهر، إذ هو قلة الرغبة في الأشياء وترك فضولها، والأصل المعتبر لمن أراد التبتل، وحسن المعاملة أن يتقلل من المطعم ويهجر الشهوات ويلازم الخلوة ويراعي أحوال قلبه فينقيه من الوساوس والأخلاق الرديئة ثم ليعلق قلبه بربه تعالى ويجتهد أن يكون حاضر القلب لا يغفل عنه طرفة عين، فهذا أصل السلوك فاعرفه.

ثم ليحذر العبد كل الحذر أن يطمح نظره ينازع شيئاً من صفات الربوبية كبراً وتجبراً وإطالة على الناس، فما على الناس أضر من إهمالهم تمييز حال العبودية عن التساهل فى الدخول فى شىء من صفات الربوبية، فلا ينبغى للعبد أن يهون فى هذا الأمر فإنه أصل عظيم، وهو طريق الخلص من أصحاب الحق تعالى، فذوو التمييز لصحة تمييزهم وحسن أدبهم مع ربهم يشفقون أن يقاربوا شيئاً مما اختص به الرب تعالى لعلمهم أن المولى يحب أن يستبد على خلقه وأن تبين لهم آثار ربوبيته عليهم رفعة وعلواً وتعاظماً وربوبية، فإذا رام العبد فى سلوكه الرفعة والعلوّ على الناس فأى مزية تبقى للرب على المربوب.

ومن هاهنا يقع الغلط لكثير من الناس، ومن سالكى زماننا حيث أخذوا أمورهم فى سلوكهم بالترفع فى العلو على العباد والدخول فى أمور تشبه أحوال الجبابرة ومع ذلك يدّعون الزهد والتشبه بأحوال الصالحين فيتخبطون فى سلوكهم وتفسد أعمالهم من حيث لا يشعرون، فتلمح أيها الأخ هذا السر فإنه أساس طريق الحق تعالى.

روى أن الرب تعالى أنزل فى بعض الكتب: تفرد الله بالكمال وقضى لغيره بالنقصان، فالعلوّ خاص لله الواحد القهار، ليس لأحد سبيل إلى شىء منه، فأنت أيها الأخ واحد من العباد فإن كنت ذا فضيلة فأولى فضائلك أن تعرف قدر نفسك وتحل محلك الذى أنزلك به مولاك، فليعنَ الإنسان بإصلاح نفسه وليطرح ما قاله الناس.

بعض أحوال السالكين

فانظر أيها الأخ إلى أحوال السالكين ذوى المعارف والهمم

فاتبعها . حكى لنا أن بعض المشايخ المسلكين كان إذا أتاه أبناء الأكابر من الشباب الذين يؤثرون الزهد والانقطاع أول ما يأمرهم به التعرّض بالكسب من الحمل مع الناس على رؤوسهم فى الأسواق مثل قدور الطباخين وحزم الحطب يأمرهم الشيخ المُسلِّك أن يلازموا ذلك برهة ويقول لهم يا بنى إن نفوسكم العزيزة لا تصلح للحق تعالى إلا بعد التطهير بنحو هذه المهن فتصلح نفوسكم بهذه ما لا تصلح بنوافل العبادات ، فإن أردتم الطريق فعليكم بهذه الأمور التى تقيمكم مقام صريح العبودية ، لأن نفوسكم عزيزة صعبة ، قد اعتادت العلو والرفعة فلا تؤثر فيها الطاعات ، حتى تذل وتنكسر فلا شىء أنفع للإنسان من أن يدرب نفسه على الذل ويجرعها غصصه ، لأن حقيقة الذل لازمة للإنسان لزوماً بيناً .

قال على بن الحسين زين العابدين رضى الله عنهما : ما أحب أن لى بنصيبى من الذل حمر النعم ، وقال على رضى الله تعالى عنه : تجرع الغصص فإنى لم أتجرع أحلى منه عاقبة ولا ألذ مغبة .

وأما هذه الأشياء العارضة للإنسان مثل رفعة قدر وعلو رتبة فذلك شىء لا أصل له ، وهو شبيه بالصبغة الحائلة والتواضع هو الفضيلة المتعارفة بين الناس فاحذر أيها الأخ الفطن أن تستولى عليك العزة والعادة الباطلة فتعجزك النفس الحرون[1] عن العمل بما قدّمنا فى هذا الفصل فيفوتك حظك من الفضيلة بالحقيقة التى تبقى عليك وتوصلك إلى مولاك ويصعب فى نظرك ترك قدرك من وهم لا حقيقة له يشاركك فيه كثير من ذوى النقائص فإن ضعفت وعظم فى نظرك سقوط منزلتك فانظر إلى من هو أعلى قدراً

---

(١) الحرون : صعبة المراس على صاحبها .

منك من الهداة المهتدين وما يؤثر عنهم من التهوين فى نفوسهم فإن ذلك يشجعك على اقتفاء مسالكهم، وقد قال بعض العارفين: من رأى لنفسه قدراً فلا قدر له.

واعلم أيها الأخ الكريم أنه لا شيء أنفع لك من النظر فى هذا الباب من التهوين فى القدر والمنزلة فإنه يريحك من أشياء متعبة وأهواء مضرة قد قيدك بها العرف الفاسد، فمن تأمل هذا الفصل وأعين على العمل بشيء مما فيه، فقد أراح واستراح وكفى مؤناً كثيرة لا حاصل لها سوى ضياع العمر فى طلب أمور إذا حصلت له وجدها لا شيء ، فكان عاقبة أمره ندماً وحزناً على فائت العمر ، فمثله كمثل العطشان الذى تعبت نفسه فى طلب السراب يظنه ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً، فالعاقل الذى يقدّم الفكر فى أموره فلا يبنى إلا على أساس ليحمد عاقبة أمره ، وصاحب العزة لا يشعر بنفسه إلا بعد خروج الحبل من يده فيندم حين لا ينفعه الندم ، فعليك أيها الأخ بالجد والاجتهاد ، لأن الرياضة تنجع فى الأشياء إما وصولاً أو متقاربة فانظر إلى هذا التسليك الذى تقدّم ذكره ما أصعبه ولكنه نافع إذ المشاق تنتج الرغائب، وإذا أحكمت النظر فى هذا الفصل وفطنت لأمراض نفسك وعنيت فى مداواتها فعند ذلك تأمل ما فى هذا الكتاب من العلوم النافعة فاجهد بالعمل بها واسمع وتعلم وكن ذا همة، فهذه طريق الأبطال من سالكى طريق الحق تعالى فالمكاسب على قدر المخاطرات، فمن خاطر بنفسه ملك نفيساً. ومن هون فى معاملاته وأهمل حسن الاستعداد فيما وظن أن هذا يقربه إلى ربه -عز وجل- كان كمن أهدى إلى الملك حشفاً فإنه يندم إذا قدمت هديته بين يدى الملك ويؤول سعيه إلى الخيبة فانتبه لنفسك أيها الأخ واسُم بنفسك إلى معالى الأمور وجانب طريق الفجرة أصحاب الدعاوى.

أهم ما يتجنبه السالك

ثم تجنب أيها الأخ الأحوال الذميمة التى تحلى بها أصحاب العيوب والنقائص والدناءات المبهرجة والأمور الفاضحة كالرقص والتصفيق، ومن الدناءات والأمور المسترذلة التى يضعها أهل البطالة مواضع القرب كالرقص والتصفيق والتساكر حالة الطرب والصياح بين الناس والتبذل بين الجمع، فهذه أحوال تدنس المروءة وتذهب الحياء وتزيل الوقار عن الإنسان. قال الله -تعالى - «وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً»[1]- أى بالوقار والسكينة فأين الوقار والسكينة من هذه الأمور المستحدثة، وصن مروءتك عما يشينها فصون المروءة أصل عظيم فى الدين، فقد قيل للأحنف بن قيس رضى الله تعالى عنه بم نلت المروءة فقال، لوعاب قومى الماء البارد ماشربته فاعلم واعمل تصب بعون الله تعالى ومشيئته.

المقاصد الحسنة فى الكلام

فأول ما ينبغى أن يبدأ به التنبه على آداب الخطاب. اعلم أيها الأخ أن ذوى العقول لا يقدمون على فعل إلا بعد الروية التامة والفكر الصحيح فلا يخلون شيئاً من أعظم أعمالهم عن قصد ونظر عبادة كان ذلك أو غيرها فلا يفعلون شيئاً عبثاً ولا عادة، ويؤسسون أعمالهم على المقاصد الصالحة لاسيما فى الكلام فإن له أسراراً لطيفة وحكماً عجيبة ينبغى لذوى العقول والأفهام أن يتفطنوا لها، فينبغى للإنسان أن يعمل الرأى قبل الكلام فيجعل لسانه من وراء قلبه فلا يقل شيئاً حتى يزنه بميزان العقل فإذا وفق العبد لفهم هذا كان هذا مبدأ أمره صلاحاً وآخره نجاحاً، وليرفق الإنسان فى كلامه ولا

---

(١) الفرقان / ٦٣.

يكثر من الكلام وإن كان حسناً، فإن الشيء إذا كثر منه سمج وكذا لا يكون مهذاراً ولا صخاباً.

التحذير من الكلام الميت

وليقطع الكلام والنفوس تستحليه قبل أن تمجه الأسماع والذى ينبغى للإنسان أن يراعيه ولا يغفل عنه أن لا يتكلم بشيء لا فائدة فيه كالأشياء القبلية المنقضية التى لا يتعلق بذكرها غرض مطلوب وأهل المعرفة يسمون هذا النحو من الكلام. «الكلام الميت»، وإنما يتفانى فى هذا أهل الغفلة وأصحاب العقول الضعيفة إنما حسب الإنسان من الكلام ما تمس الحاجة إليه، ومنه قيل: نظر الخطأ خطآن والكلام فى الماضى تضييع زمان، ويجتنب من الكلام ما يحرك النفوس ويثير الشرور، فإن النفوس تطالع النفوس وبعضها يحسّ بأحوال البعض، فمتى صدر عن الإنسان كلام ظاهره حسن لكنه عن نفس ثائرة ودخيلة سيئة حرك نفس المحاذى وأثار شرها.

واعلم أن الأهواء تحرك الأهواء وتثير شرها، فإن الأهواء كامنة فى الأنفس كمون النار فى الزناد إذا قابلت هواء محركاً تحركت، فقد يكون الإنسان قارّاً ساكناً حتى يقابله صاحب هوى فيتحرك هواه وكذا يتنزل الكلام من باطن المخاطب على قدر أحوال الباطن سكوناً وانزعاجاً لا تعلق لأحوال الباطن بظواهر الكلمات والألفاظ، ألا ترى أن الإنسان يلقى صاحبه بكلام ظاهره الخشونة والمساءة لكنه عن نفس طيبة فلا يؤثر فى نفس المخاطب ولا يسوؤه، وهذا الكلام بعينه إذا صدر عن نفس ثائرة وضمير سئ أزعج المخاطب وحرّك شره فليراع الإنسان ذلك من نفسه ومن غيره إصلاحاً وتسكيناً. ومن أحسن ما قيل فى تبيين سر الكلام قول سيدنا علىّ رضى الله تعالى عنه: «مغرس الكلام القلب، ومستودعه الفكر، ومقوّيه العقل،

ومبديه اللسان وجسمه الحروف، وروحه المعنى، وحليته الإعراب، ونظامه الصواب».

تأثير الكلام فى نفس السامع

واعلم أن تأثير الكلام في نفس السامع على قدر إصداره من نفس المتكلم، فإن كان الكلام صادراً عن قوة نفس أثر فى السامع تأثيراً قوياً، وإن كان صادراً عن ضعف نفس أثر فى السامع تأثيراً ضعيفاً، فلأجل ذلك ينبغى لكل أحد أن يعتبر حال نفسه قبل إصدار الكلام ليصدر كلامه عن نفس ساكنة يلاطف صاحبه بكلام ملاطفة، ليأخذ به قلبه ويسره ولا يغضبه، ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾[١] وكذلك قوله تعالى ﴿ ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولىّ حميم ﴾[٢] ثم انظر إلى قول تعالى ﴿ وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾[٣] وهذا إشارة إلى عظم المنة على من منح هذا الخلق فافهم واجهد على التخلق به، فإنه خلق الخواص، فانظر أيها الأخ إلى هذه الأخلاق العالية فتخلق بها ونافس عليها فدار الناس مداراة واحذر ثوران النفوس، فإن النفوس إذا ثارت رجعت إلى طباعها فمالت إلى الشرور وإبداء المعايب وإذا رضيت انبسطت وتهيأت بإصدار الخيرات، واهجر الخلاف والمنازعة جهدك وطاقتك باطناً وظاهراً، فإن لم تستطع بباطنك فليكن بظاهرك وحاسن صاحبك محاسنة، فإن الخلاف أصل الشرور والبليات وهو كما قيل: الخلاف يهيج العدواة والعدواة تستنزل البلاء، فعليك أيها الأخ بالوفاق وتسكين الأنفس فإن

(١) النحل / ١٢٥ .
(٢) فصلت / ٣٤ .
(٣) فصلت / ٣٥ .

القلوب إذا اتفقت تيسرت الخيرات وتنزلت البركات. قال سيدنا عليّ رضى الله تعالى عنه: «عوّد نفسك حسن النية وجميل المقصد تدرك فى مساعيك النجاح فرب نية أنفع من عمل فافهم، واهتمّ بإصلاح اختلافك تصب مراشدك فى أمرك فالعلم بالتعلم والحلم بالتحلم، كما قيل:

لِذِى الحلمِ قبل اليومِ ما يُقْرِعُ   وما عُلِّمَ الإنسان إلا ليعلما

وليحفظ الإنسان منطقه فليجتنب فاحش الكلام أن ينطق به أو يحكيه عن أحد، فإن عيبه فى عاجل الأمر عليه لاله، وله فيه أوفر القسمين: ألا ترى إلى قول الشاعر.

عَراعِرُ لا ينطقُون الخَنَا   ولا يحفظون الكلام المعيبا

يؤم الفتى منهم جهده   فإن قال قال خطيباً مصيباً

وكذا ينبغى للإنسان أن يمسك عن الكلام فى حالتى الغيظ والغضب، لأن الكلام حينئذ يكون إلى الزلل أقرب، لانزعاج النفس وغليانها، ولكن يصبر حى يسكن جأشه ويذهب انزعاجه.

من آداب السماع فى المجالس

والزم الأدب أيها الأخ عند استماع الكلام فلا تقطعن على أحد كلامه ولا تجبهه بردّ بين الجمع فإن ذلك قبيح، فإن رأيت من صاحبك خطأ فى كلامه وكان من الخطأ الذى لا يضر فسامحه فيه ولا تظهر عيبه بين الناس فإن أردت إرشاده فاصبر حتى تخلو به. اللهم إلا أن يكون الكلام من الخطأ الذى يجب رده وإظهاره للجماعة كى لا يرسخ فى أذهانهم فلا ترد عليه رداً عنيفاً، ولكن برفق ورحمة فإن ناله من ذلك خجل، فالذنب له لأنه هو الذى جنى ذلك على نفسه، فإن كنت رئيس قوم ومقدماً على جماعة فترفق فى

كلامك وسكن سورة نفسك، واحذر العجب والتجبر فى محاورتك فإن شدّة الغضب تطفئ نور علمك وتذهب رونقه، فإن أردت دوام الراحة ونيل المحمدة وحيازة الأجر فلا تكن مناقشاً لمحاوريك فى الكلام وتغافل عن سقطات الرجال فإن خولفت فاثبت ولا تجزع وإن لقيت ما تكره فاحتمل ولا تجاوب فإن ذلك شأن ذوى الثبات والرياضة من أقوياء الرجال، وكما قيل: رب كلام جوابه السكوت. قال الشاعر:

ما كل قول له جواب — جواب ما تكره السكوت

التلطف بخلق الله تعالى

وأنصت للمستضعفين، وسكن انزعاج المرعوبين، وتثبت عند كلام الملهوفين، وعاملهم بفضل حلمك، وجد عليهم بجميل ملاطفتك واشكر نعمة الأمن ودعة الطمأنينة ، لأنه قد ورد فى الكتب المنزلة مما وصى به الرب تعالى الأمم السالفة «أنصت للسائل حتى يقضى كلامه ثم اردد عليه برحمة وكن لليتيم كالأب الرحيم وللمظلوم ناصراً لعلك أن تكون خليفة الله تعالى فى أرضه، وكذا روى أن الربّ تعالى قال فى التوارة مما خاطب به بنى إسرائيل « لينصت أهل السماء حتى أتكلم، وليسمع أهل الأرض ما أقول: اسلك فى طاعتى وكن صحيحاً فإنى أنا الله العدل الصحيح المستقيم ذو الأمانة، لا جور عندى، الغريب لا تضطهدوه فطال ما كنتم غرباء فى أرض مصر، والأرامل والأيتام لا تظلموهم فإنكم إن ظلمتموهم وصرخوا إلىّ سمعت صراخهم فيشتد غضبى عليكم فأقتلكم بالسيف وأجعل نساءكم أرامل وأولادكم يتامى، والرِشّا فلا تقبلوه فإن الرِّشا يعمى البصر ويزيف الأمور العالية، وإذا رأيت حمار شانيك رابضاً تحت حمله فيجب أن تحط معه واعلموا أنكم إن قبلتم وصيتى عاديت معاديكم وأبغضت مباغضيكم،

وكذا إذا سمعت إنساناً يورد شيئاً عندك منه سابق علم، فإياك أن تسلب كلامه استلاباً وتغالب عليه مغالبة، فإن ذلك صغر نفس ودناءة ولكن استمع منه كأنك لا تعرفه فإن ذلك شأن ذوى النبل والإثبات، لا سيما إن كان صاحب الكلام فى جمع يحتاج إلى التمييز بينهم أو عند رئيس يؤثر الشفق لديه، فإن من اللوم كسره ومغالبته على كلامه، وما أحسن قول الشاعر:

لا ينطقون عن الفحشاء إن نطَقُوا ولا يمارون مَنْ مَــــارَى بإكثار
من تلْقَ منهم تَقُلْ لاقيتُ سيدَهم مثلَ النجومِ التى يسْرِى بها السَّارِىَ

واعلم أن المستمع شريك القائل فلا تصغ إلى كلام قبيح وجانب استماع الغيبة والنميمة وكل معيب من الكلام، وكن عند ذلك كما قال الشاعر:

وسمَعكَ صُنْ عن سماع القبيحِ كصَوْن اللسانِ عن النطق بِهْ
فإنك عند استماعِ القبيح شريكٌ لقائلِه فانتبِهْ

ضرورة مراعاة الأوقات

انتبه أيها الأخ وحسن أعمالك مهما استطعت، وتلمح الأزمان فإن فيها ما يغلب فيه الشرور، ويقلّ فيه السرور، وتعم فيه الغموم وتكثر فيه الهموم، وتقلّ فيه البركات، قيل أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء عليهم السلام: لا تتخذ المال فى زمن العقوبات، فلذلك ينبغى للعاقل أن يستيقظ لنفسه ويستشعر الحذر فى أمره ويجتهد فى القرب إلى مولاه بكل ممكن استدفاعاً للخطوب النازلة بالخليقة، فما يوقع العباد فى هذه المكارة والبليات إلا غفلتهم وإهمالهم لجانب المولى العلى، وإعراضهم عنه وطمعهم فى أصحابه وقلة اهتمامهم بما يقرّب إليه تعالى فإن ذلك يغضب الحق تعالى

فتمتنع البركات عن الأرض فتتخبط الخليقة وتفسد أحوالهم لأن هذه الأزمان التي تكثر فيها الغفلة ويستظهر بها العصاة تظاهراً وتجاهراً أزمان صعبة مخوفة العواقب تدل على إعراض الرب تعالى، وإذا كان راضياً على العباد نظر إليهم نظر رحمة فيستنير العالم ويكتسي بهجة وترتاح الأنفس وتحيا القلوب ويظهر السرور، وتصلح أحوال العباد وتدرّ البركات وتنمي الخيرات، وكما قيل:

ترى الحيّ مسروراً إذا كان حاضراً ... بنعمي ويغبرون حين تغيب

وكما قيل:

لعمرى لئن قَرَّتْ بقربِكَ أعينٌ ... لقد سَخُنَتْ بالبعدِ عنك عيونُ

فسرْ أو أَقِمْ وقِفْ عليكَ مودتى ... مكانَكَ من قلبى عليك مصونُ

فما أوحش الأيامَ [1] إذ كنتَ غائباً ... وما أحسن الدنيا بحيثُ تَكُونُ

وكما قيل:

فروحى وريحانى إذا كنت حاضراً ... وإن غبت فالدنيا علىّ محابس

ففيك صحبتُ العيش والعيش ناعم ... وفيك سكبتُ الدمع والربع آنس

إذا لم أنافس فى هواك ولم أغر ... عليك ففيمن ليت شعرى أنافس

وكما قيل:

وأنت الذى حببت نجداً وحاجراً ... إلىّ وأوطانى بلاد سواهما

حللت بهذا حلة ثم حلة ... بذاك فطاب الواديان كلاهما

علامات إعراض الحق عن خلقه

قالوا : وإذا أعرض الله تعالى عن الخليقة أظلم العالم وذهب أنسه وانطفأ

---

(١) فى نسخة : الدنيا .

نوره وانكسرت القلوب وساءت أحوال العباد وعمت الهموم وقلت الخيرات، وذهبت الأمانات وفسدت المودّات وغلت الأسعار وتسلطت الأشرار، وقلت فوائد أرباب المعاش، وتحيرت العقلاء لما يرون من الأمور المستغربة، وتوحشت الأرض وتنكرت لأهلها كما قيل:

إذا هبطتُ بلاداً لا أراك بها ... تجهمت لى وحالت دونها الظلم

أسباب إعراض الحق سبحانه عن عباده

كل هذه بذنوب العباد حيث انتهكوا محارمه وأهملوا أوامره لأن للرب تعالى فى عبادة عقوبات معجلة فالمعجلة منها ما تقدّم ذكره من تخبط أحوال العالم: وأما المؤجلة فما أوعد به من عذاب الآخرة فكذلك ينبغى للبيب أن ينتبه من رقدته ويبذل الجهد فى معاملة ربه لأنه برحمته ينجي عبده المتخصص بخدمته المهتم بطاعته عند إنزال العقوبات وإرسال البليات، فإن العقوبات إذا أحاطت بالعباد عمت الأشرار والأخيار لكن يقلّ نصيب الأخيار منها ويكون الذى ينوبهم منها أيسرها وأخفها، فالصالحون وإن ألمت بهم البأساء وأضرّت بهم مصائب الدنيا صابرون على مرّ القضاء وألم البلاء احتساباً فكأنهم يقولون بلسان حالهم:

وإني لأرضاه مسيئاً ومحسناً ... وأقضى على قلبى له بالذى يقضى

فحتى متى روح الرضا لا ينالنى ... وحتى متى أيام سخطك لا تمضى

ويتوفر قسم الغفلة عن تلك البليات والنوازل وتعظم مصائب العصاة عند نزولها، لأن لشؤمهم تعدت العقوبات إلى الأخيار لأن الله تعالى يقول فى كتابه العزيز ﴿ واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة ﴾[1]

---

(١) الأنفال / ٢٥ .

وذكر أن الرّب تعالى قال فى بعض الكتب المنزلة بذنب المنافق تحترق المدينة، بذنب المنافق تحترق الدنيا، فأكثر ما يوقع العباد فى هذه البليات غش القلوب وشوب الرياء للأعمال لاسيما من أصحاب الزهادة والعلم، لأن الرب تعالى قد قال فيما خاطب به بنى إسرائيل، تتفقهون لغير الله وتعلمون لغير العمل وتنقون القاذة من شرابكم وتبتلعون أمثال الجبال من المحارم وتلبسون مسوح الضأن وتخفون أنفس الدنيا، فبعزّتى حلفت لأضربنكم بفتنة يضلّ فيها رأى ذوى الرأى وحكمة الحكيم، فعلى كل حال الحق تعالى يراعى أصحابه ويرفق بهم عند نزول الأقضية، وإرسال العقوبات لأن الله تعالى يقول ﴿ كذلك حقاً علينا ننجى المؤمنين [١] ﴾ وكذلك قوله تعالى ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا [٢] ﴾ وكذلك روى أن الرّب تعالى قال لبعض بنى إسرائيل وكان عبداً صالحاً وقد ألمت به الشدائد فأتاه آت من ربه عز وجلّ فقال له: يا هذا لا تخف فإن الله معك وإن الرّب تعالى يقول لك: إن الحبيب لا يسلم حبيبه وأنه لا يهون من توكل علىّ ولا يضعف من تقوّى بى، والقصة مذكورة فى بعض فصول هذا الكتاب، فأحضر فهمك أيها الأخ وتعرّف إلى مولاك فى الرخاء يعرفك فى الشدّة فإنه رءوف بعباده رفيق بهم رحيم لا ينسى إلا من نسيه لأنه قد روى أن الرّب تعالى قال فى بعض الكتب: ألا من ذكرنى ذكرته ومن نسينى نسيته من آمن بى صادقاً فليتوكل علىّ صادقاً، فكفى بى كافياً ومثيباً، فالله يجعلنا وإياكم معاشر الإخوان من خواصّ عباده ويوفر قسمنا من الخيرات ويدفع عنا النوازل والبليات برحمته.

---

(١) يونس / ١٠٣ .

(٢) الحج / ٣٨ .

والكلام مبنى على الأساس : وهو النية ، ولنذكر علمها بما تيسر فنقول : اعلم أن من الأصول الموصلة والقواعد التى يجب مراعاتها ، والعمل عليها تأسيس الأعمال بأحكام النيات ، وإخلاص الطويات والدخول فى الطاعات مخلصاً من الشوائب التى تفسدها ، والأصل فى ذلك قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم «إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى»[1] فأعمال القلوب هى النيات وعنها تصدر الأفعال الظاهرة ، فالأصول هى أعمال القلوب ، والفروع هى أعمال الجوارح ، فإذا أحكمت الأصول تثبت الفروع ، وإذا أهملت القواعد وهى النيات تزلزلت الأعمال الظاهرة ، وهذا عام فى جميع الأعمال الدينية والدنيوية معاً ،وإذا أردت النجح وسداد الأمر فأحكم مقاصدك عامة دقيقة كانت أو جليلة بإعمال الرأى فيها أوّلاً ثم بإعطائها من الهمة ما تستحقه ثانياً ، ثم بعد ذلك تفوّضها إلى الله تعالى وتلجأ إليه فى إتمامها ونجاحها فبذلك تزكو الأعمال وتصح المطلوبات ، فأحضر فهمك أيها السامع فإن للكلام فى هذا الموضع موقعاً غامضاً ينبغى أن ننبه عليه إخواننا السالكين ليرشدوا والله الموفق ، ومنه المعونة . واعلم أن للنيات أفعالاً عجيبة تنفعل لها الأشياء إن خيراً فخير وإن شرّاً فشر ، فحسن النية هو منبع الخيرات ، لأن أعمال الهمم فى الأشياء تفعل فيها فعلاً عاماً بالقدرة الإلهية ، وعلى قدر قوّة العزم وضعفه يترتب المطلوب ، فلذلك ينبغى للإنسان أن يكون هماماً فى الأمور فلا يتوجه فى طلب شىء بغفلة ولا إهمال شىء بغفلة عادة ، ولكن يعمل الرأى ويقوّى الهمة ويصمم فى الأمور ، وقد ورد فى هذا المعنى كلام عجيب من الحكم القديمة ، وهو : الحزم انتهاز الفرصة وإرضاء ما

---

(١) رواه البخارى ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

ينوى فعله، وترك التوانى فيما يخشى فوته والتفكر فيما لا يعلم يقع أم لا، مادة العجز وسبب الهزيمة ويشهد لهذا قوله تعالى ﴿ يا يحيى خذ الكتاب بقوّة[1] ﴾ أى بقوة عزيمة، وكذا قوله عليه الصلاة والسلام «نية المؤمن خير من عمله[2]» لأن أفعال القلوب تتعدى إلى أشياء لا تتناهى ولا تحيط بها المقاصد، فقد ينوى الخير فيعان على فعله، وينوى الشرّ فيتيسر على يديه، ومن عجيب أسرار النية أن بركتها تصل أشياء لا تخطر بالبال كما ورد أنه لما ولى عمر بن عبد العزيز رضى الله عنه الخلافة، قال رعاء الشاء: من هذا العبد الصالح الذى قد قام على الناس؟ قيل لهم، وما علمكم بذلك؟ قالوا: إنه إذا قام على الناس خليفة عدل كفت الذئاب عن شائنا، فانظر إلى هذه النية المباركة، كيف أثرت فى سباع الفلاة، وكذا تأثير النيات فى جانب الشرّ، فإذا أضمر الإنسان الشرّ وساءت نيته تولدت من ذلك شرور يعم موقعها، قد لا يكون من قصد الإنسان، وهذه أمور غامضة يجب التنبه لها وإعمال الفكر فيها، فإن المقصود من تأصيل هذه الأصول أن يضبط الإنسان قلبه عن الشرور إذا دخل فى شىء من الطاعات صلاة كان ذلك أو تسبيحاً أو قراءة قرآن أو صدقة أو عيادة مريض أو شهود جنازة أو أىّ عبادة كانت، فلا يلابس شيئاً من ذلك ساهياً ولا غافلاً، فقد قال بعض العارفين رحمه الله: من ذكر الله بالغفلة أعرض الله عنه، هذا للعموم. وأما الخواص فإنهم يلتزمون النيات فى كل شىء حتى فى المباحات فبإحضارهم النية فى المباحات تصير من الأعمال التى يرجون فيها الأجر كلبس الثوب مثلاً فإنه إذا حسنت فيه النية

---

(١) مريم/ ١٢.

(٢) لم يرد بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى ويشهد له حديث «إنما الأعمال بالنيات» وحديث «إن قوما خلفنا بالمدينه ما سلكنا شِعْبًا ولا واديًا إلا وهم معنا حبسهم العذر» رواه البخارى عن أنس.

امتثالاً للأمر في قوله تعالى ﴿ خذوا زينتكم عند كل مسجد [١] ﴾ وكذا العمل بقوله صلى الله عليه وآله وسلم "إن الله جميل يحبّ الجمال[٢]" ثم يضيف العبد إلى ذلك شكراً لله وحمده على ما رزقه فإن المباح حينئذٍ يصير عبادة .

إذا أردت أن تؤجر بمجرد النيات ، فاجعل ميلك إلى الخيرات عزماً صادقاً لو قدرت عليها . أما الذي يميل إلي الخيرات من غير اهتمام لها ولا إعمال خاطر في الوصول إليها ، فهذا تمنّ كاذب لا أصل له ولا أجر فيه ، وهذا المعنى بعينه هو الذى جاء النهى عنه : إياكم وهذه الأمانىّ فإنها أودية النوكى[٣] ، هذا قول الحسن البصرى رحمة الله تعالى عليه .

فضل العمل الخالص لله تعالى

العمل الخالص من كل الوجوه عزيز ، وهو قليل الوجود لأن أكثر أعمال البرّ لا تخلو عن شيء من الهوى وإن قلّ ، ولكن الإنسان قد لا يحسّ به لخفائه ، فهذا العمل الخالص من سائر الوجوه هو الذى يصل إلى الرب تعالى بسرعة ، وهو الذى يخرق الحجب لأنه سيد الأعمال وروحها ، وهذا العمل هو الذى قد عمل به بنوع مجاهدة ومشقة ليس للنفس به تعلق بوجه ، وهذا العمل هو عمدة العارفين ومعولهم فافهم .

مثال ذلك إذا كان العمل صدقة يكون مصرفها إلى من لا يرجو مدحه ولا يخشى ذمّه ولا يكون بمحبة ولا صداقة ولا لسبب من الأسباب التي

---

(١) الأعراف / ٣١ .

(٢) رواه مسلم من حديث عبدالله بن مسعود .

(٣) النوكى : الحمقى .

ترتاح النفس إليه، هذا محض الإخلاص، وإن كانت القربة صلاة فمحض الإخلاص فيها إحضار القلب من مبتداها إلى منتهاها، وهو أن يجمع الإنسان همه جملة فلا يغفل قلبه فى شىء منها، وهذا عزيز جداً فهذا هو العمل الخالص حقيقة فاعلم، فالعمل إما أن يكون على محض الإخلاص، وهو ما تقدّم ذكره، وإما أن يكون من سبيل المعروف وإن لم يكن على محض الإخلاص كأعمال يتعاطاها الناس بينهم محاسنة ومجاملة واتقاء شرور فهذه أيضاً خيرات لكن لا تصل إلى رتبة العمل المتقدّم ذكره.

قال رجل للحسن البصرى رحمة الله تعالى عليه: يا أبا سعيد إن الرجل يسألنى، وأنا أمقته فأعطيه حياء هل لى فى ذلك من أجر؟ قال: إن ذلك من المعروف، وإن فى المعروف أجراً.

نتيجة إخلاص العمل
وما يجب على المريد الصادق فعله

اعلم أيها الأخ أنك إذا صدقت فى مقاصدك وراعيت أعمالك تحسيناً وتلطفاً فى حسن المعاملة فإن الله تعالى يسبغ عليك طوله، وتعمك عنايته فيذيقك حلاوة المعاملة فينشرح صدرك ويحصل لك نوع استقامة ترتاح بها ويحصل لك من العلم أن ترى الأشياء على حقائقها وترى الناس على طبقات أحوالهم وتطلع على عجائب الملكوت وتعرف سر الخليقة وما جبلوا عليه من الأخلاق العجيبة المختلفة ، فربما رأيت من الإنسان ما لا يراه من نفسه، فصدق الإنسان فى أعماله بالكلية والتزامه طرائق الصحبة هو طريق القوم إلا أن صاحب هذه الطريقة في وقتنا هذا يتعب ، فينبغي له أن يصبر على الضيم ويكظم على المضض ويطمئن النفس على جفاء الناس له ، لأنه

يبقى غريباً بينهم وحيداً مطموعاً فيه وفي جانبه، وربما قصد بالأذى ، وذلك لكثرة المخالفين له فليصبر هذا العبد، وليحمد ربه على ما منحه من صحة الطريق له فإن العاقبة له، فإذا عرفت فالزم وتأدّب بآداب الرب تعالى، فاحذر أن تكشف لأحد ستراً أو تظهر له عيباً اطلعت عليه ، ولكن تعجب من سر الحكيم تعالى في خلقه، واجعل نزهتك النظر في عجائب مصنوعاته فارحم خلقه، واشكر إلهك على ما منحك فهذه الخليقة موضوعة على الأسرار والحكم، فالحظ السر واعمل على الحكم ترى العجائب.

مراعاة تقديم الأولى في الأعمال والتحذير من الهوى

أيها الأخ ناسب بين أعمالك واحذر الخلل فيها من إهمال ترتيبها ووضع شيء منها في غير موضعه فذوو التوفيق هم الذين يحسنون المعاملة فيرتبون أعمالهم ترتيباً ويناسبون بين معاملاتهم مناسبة، فاحذر أن يدخل عليك الهوى فتشغف ببعض الأعمال دون سائرها وأن تقدّم من الأعمال ما يجب أن يتقدّم عليه غيره فإن هذا يقع إما من قلة العلم أو تعلق الهوى ببعض الأعمال وهذه الأعمال التي يتقرب بها العباد مثالها مثال من أراد أن يبتنى داراً ، فإن الحكمة تقتضي أن أوّل ما يبدأ به تأسيس القواعد فإذا أحكمها رفع البناء ثم أتبع ذلك ما يناسبه ترتيباً ومناسبة، فأول ما ينبغي للسالك أن يهتم به طلب الحلال وما يقاربه إن تعذر الحلال ثم الاهتمام بما افترض الله تعالى على العبد من الأعمال الواجبة فيؤديها على أتم الأحوال وأحسن الوجوه، وليكن تقوى الله تعالى نصب عينيه يدور مع أوامره تعالى ونواهيه كيفما دارت لا يحيد عنها، ثم بعد ذلك يهتم بنوافل الأعمال ورغائب الطاعات فيقدّم الأولى منها فالأولى، وليعلم العبد أن أفضل الطاعات

وأقربها إلى مرضاة الرب تعالى الإحسان إلى ضعفاء خلقه من إطعام المساكين والنظر فى أمور المحتاجين ونصرة المظلومين وجبر المنكسرين، ثم بعد ذلك يتقرب بنوافل العبادات لاسيما الصلوات، وأهمها قيام الليل فإنها عبادة جليلة لأن ساعات الليل ساعات عزيزة ينبغي للعبد أن يغتنم فيها التقرب صلاة ودعاء وقراءة وتضرعاً وتمسكنا سيما الساعة الحادية عشرة فإنها ساعة الإجابة فلا يغفل العبد عنها هكذا ينبغي أن يكون ترتيب الأعمال فيحذر أن يميله الهوى فيرجح ما غيره أرجح منه، فهذا أصل عظيم يجب التنبه له، وهذا طريق أهل الفهم عن الله تعالى يضعون كل عمل فى مرتبته بالتمييز الصحيح السليم عن الهوى، فاقتف آثارهم وانح مسالكهم ترشد إن شاء الله تعالى.

السالك الصادق يبدأ بنفسه

يا من تُنَصّب لهداية العباد إلى مولاهم ابدأ بنفسك فقوّمها وسددها، واحذر أن تأمر بشيء قولاً وتخالفه فعلاً فإن ذلك تخليط قبيح وتعرض فاضح، فلا يكن أتباعك حينئذٍ إلا النوكى[1] الذين لا روية لهم ولا معوّل على عقولهم، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإن انتهت عنه فأنت حكيم

تصف الدواء لذى السقام وذى الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم

ونراك تصلح بالرشاد عقولنا ... أبداً وأنت من الرشاد عديم

---

(١) الحمقى.

لا تنه عن خلق وتأتي مثلـــه   عـــار عليك إذا فعلت عظيم

فهناك يسمع ما تقول ويقتـــد   بالقـــول منك وينفع التعليم

فلا ينبغي أن تكون همتك أيها الأخ فى علومك تحسين العبارات وترصيف الكلام، وتهمل العمل والتخلق بما قد دئبت فى تعلمه فإن ذلك خسران وحرمان. قال سيدنا عليّ رضى الله تعالى عنه: «المنافق علمه فى لسانه والمؤمن علمه فى قلبه»، ومنه قوله: «ربَّ داع إلى الله وهو يفرّ منه، ورب متقرب إلى الله تعالى بما يمقته عليه، ورب تالٍ لآيات الله وهو منسلخ منها».

فلا تطمعنّ أيها الأخ أن تكون عند الله من العلماء الذين يفضل مدادهم دم الشهداء حتى يسرى العلم إلى باطنك ويصير له تعلق لبصيرتك دعاء وتضرعاً وخشية وتخلقاً بأخلاق السلف الماضين رضى الله تعالى عنهم أجمعين،وإذا نظرت نظر العدل والإنصاف بان (أى ظهر) لك الفرق بين العلماء الذين شأنهم القيل والقال والإكثار من التصانيف والتشدق بالكلام، وبين علماء الصدر الأول كالحسن البصرى الذى كان شعاره الخوف والجزع، ومحمد بن واسع، وابن سيرين الذى روى عنه أنه كان إذا استفتى فى شيء من الحلال والحرام تغير لونه خشية من الله تعالى، وكسفيان بن سعيد الثورى، وما يروى عنه من العلوم والزهد والتواضع وصدع الجبابرة بالحق فى مواطن الهلكة كما روى عنه أنه لقى المنصور فى الطواف وكان المنصور يحب أن يراه فلا يأتيه فقيل له: يا أمير المؤمنين هذا سفيان الثورى قال فأتاه المنصور وسلم عليه وأخذ بيده وهش بها، وقال يا أبا عبد الله لم لا تأتينا؟ فقال سفيان: لأن الله تعالى نهانا عن ذلك. فقال المنصور وكيف؟ فقال سفيان لأن الله تعالى قال ﴿ ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار[1] ﴾

(١) هود / ١١٣ .

ثم جذب يده من يد المنصور وذهب، فهذه سيرة العلماء الأول، ما كان شأنهم الإكثار من التصانيف فراراً من العمل وعجزاً عن التخلق بأخلاق هؤلاء السعداء الذين هم من العلماء بالحقيقة، فالإنسان يستروح إلى التصانيف والتشدق فى الكلام بين أصحابه ويكثر الخوض فى ذكر مناقب القوم، فهو مستروح جداً لأن الكلام سهل، ولكن العمل به صعب، فهو فى عافية ما لم يبتل بشىء من أعباء الأعمال التى كان القيام بها شأن القوم من غير كلام ولا قيل ولا قال، فمثله كمثل الجبان الذى يتشاجع ويتزيا بزىّ الأبطال ويكثر الهدر فى ذكر الحروب فهو فى عافية ما كان وحده، فإذا ابتلى بمقاومة من يقاومه ويبارزه افتضح فهو، كما قيل:

وإذا ما خلا الجبان بأرض　　　طلب الطعن عندها والنزالا

فإذا رمت التأديب والتثقيف، فارفق بالخلق وانصح لهم ودار عقولهم مداراة وقارب أفهامهم مقاربة لتنقاد لك أنفسهم ولتقبل عليك قلوبهم.

واعلم أن الله تعالى قد نزّل عباده منازلهم فى العقول والأنحاء، فينبغى للفطن أن يتلمح حكمته تعالى فى خليقته ويستنّ بسنته فى الرفق بهم والمداراة لهم والستر لأحوالهم ولا يطمع العبد فى تغيير شىء من جبلاتهم، فإن نقل الطباع ممتنع. اللهم إلا ما اقتضاه التأديب والتعليم على طريق الرفق والتلطف مع مراعاة نفوسهم عن التغيير والانزعاج فإن النفوس إذا أزعجت نفرت فلم يجد فيها التعليم ولا التأديب.

اجتناب المعاصي أعظم من فعل الطاعات

قد يكون القلب عاصياً والجوارح طائعة كما قد يكون الإنسان عالم اللسان جاهل القلب، وهذا فصل عظيم النفع لمن تأمّله ،لأنه اصل من أصول

الأعمال تنبنى عليه أشياء مهمة فى السلوك، فعصيان الجوارح أهون من عصيان القلب، فلنذكر الآن فى هذا الفصل أهمّ الأعمال وأولاها بالتقدم فنقول: التقرب إلى الله تعالى يكون بفعل الطاعات، واجتناب المعاصى أهمّ عند العارفين من الإكثار من الطاعات مع التسامح فى ارتكاب شيء من المآثم. قال الله تعالى ﴿ أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أمن أسس بنيانه على شفا جرف هارٍ ﴾[1] وقال بعض العارفين :ليس من عمل بطاعة الله صار قريباً من الله تعالى، لكن من اجتنب ما نهى الله تعالى عنه صار قريباً من الله تعالى؛ لأن الأعمال من البر وفعل الخير يعملها البر والفاجر، ولا يجتنب الآثام إلا صدّيق مقرب، فقد يستكثر الإنسان من أعمال البر ونفسه غير زاكية لأنه يكون قد أهمل تأسيس أعماله على التقوى وتساهل فى ارتكاب شيء من المحرمات فيفسد عليه قلبه من حيث لا يشعر، قال كعب الأحبار: تجد الرجل يستكثر من أعمال البر ولعله لا يساوى عند الله تعالى جيفة حمار، لقلة علمه وعمى قلبه وبصيرته وتجد الرجل ينام الليل ويفطر النهار ولعله عند الله تعالى من المقربين، لما قسم له من العقل، فهذه الأعمال لها أسرار غامضة وقواعد عزيزة، ما كل من دخل فيها بان أثرها عليه إذ الأعمال تحتاج إلى آداب لطيفة، وينبغى أن يمدها من البواطن أصول خفية مهمة فمتى دخل فى العبادة من له قلب، ويكون عارفاً بسرها لاحت عليه آثار القبول وأشرقت عليه أنوار الوصول، وإذا دخل فى هذه الأعمال أصحاب البواطن المظلمة والأنفس الخبيثة لم يزدهم إلا عمى وضلالاً. قال سيدنا علىّ رضى الله تعالى عنه مثل المتعبد بغير علم كحمار الطاحون يدور ولا يبرح من مكانه، فعمل الجاهل وبال عليه وعلمه ضلال لديه فمن أراد أن يتنور قلبه

---

(١) التوبة / ١٠٩ .

فليحاسب نفسه ولا يتسامح فى ارتكاب شيء من الشبه والمحرمات وليجتهد فى اجتناب الآثام مهما أمكنه فإن ذلك أصل كثير النفع مجرب، فإن ذلك يشرح الصدر ويسكن النفس. قال الله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ﴾[1] وإذا أهمل العبد تقوى الله تعالى وتساهل فى الآثام والمحرمات خبثت نفسه وساءت أخلاقه واختلط عليه أمره، هذا شيء مجرب يعرفه أهل المعاملة فلا تغفل عنه أيها الأخ، فكما تفعل يفعل بك، وكما تدين تدان. قال الله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[2] قالوا فى التفسير : يرزقه رزقاً حراماً يضيق عليه عيشته، فإن أكل الحرام يحرج الصدر ويضيق الأخلاق.

الفرق بين القلوب النيرة والمظلمة

ما وهب الله تعالى لعبده موهبة مثل قلب هين لين، لأن من القلوب قلوباً قد جبلها الله تعالى بمشيئته قريبة من الخير بعيدة من الشر فهى بجبلاتها تناسب الخير وتتصف به وهى هذه القلوب اللينة المنورة الرحيمة التى تحب الله تعالى وتحب خلقه لأن من أحب الصانع أحب صنعته فأصحاب هذه القلوب هم أهل القرب من الله تعالى وبينهم وبين أعمال البر مناسبة أكيدة، فإذا راموا الخيرات تسهلت لهم للمناسبة التى بينهم وبينها، وما أنسب أصحاب هذه القلوب إلى الصفة التى فى الكتاب العزيز ﴿ يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ﴾[3] فأصحاب هذه القلوب هم المرادون بقوله تعالى فى الكتب السالفة : إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملنى وضقن أن يسعنى ووسعنى قلب المؤمن

---

(١) النحل/ ٩٧ .	(٢) طه / ١٢٤ .	(٣) النور/ ٣٥ .

الوادع اللين فهذه القلوب هى أوطان الأسرار الإلهية، ومعادن العلوم الربانية، وفيها يقول العارفون:

أحب الحمى من أجل من سكن الحمى   ومن أجل أهليها تحب المنازل

فترى أصحاب هذه القلوب تلوح عليهم آثار المعاملة بيسير من العمل. وثمّ قلوب تنافى الخير بجبلاتها وغلظها وقسوتها فأصحاب هذه القلوب يتعبون ويجتهدون فى الأعمال ولا يكاد يظهر عليهم كثير تنوير للمنافاة التى بين خلقهم وبين الخيرات فهم يتكلفون الأعمال والحال يجنح بهم، فهذا القسم من الناس ينبغى أن يتعهدوا قلوبهم بتنقيتها من الأخلاق الرديئة ويجتهدوا فى تزكية نفوسهم إن وفقوا للاطلاع على معايبهم فلعل الرياضة تنجع فيهم، فقلّ أن يرى أحد من رجال الحق إلا وهو ذو قلب رقيق علامة رقة القلب، فعلامة صاحب القلب الرقيق ميله إلى الدعاية لخفة روحه ولطف سجيته، ويستدل على صاحب هذا القلب الرقيق برقة ماء وجهه ومن شأن هذا الإنسان أن يكون سهل الخليقة لين العريكة بساماً ضحاكاً، وهذا القسم من الناس هم أكثر أهل الجنة، لقول النبى صلى الله عليه وآله وسلم «حرمت النار على الهين اللين السهل القريب» [1] فأعمال هذا الجنس من الناس تكون أعمالاً حسنة للمناسبة التى بين قلوبهم وبين الخيرات، لأن رقة القلوب معينة على الخيرات إعانة بالغة، ولأن جبلة هذا القسم من الناس الرحمة والشفقة على الخلق، وهى أقرب الطرق إلى الله تعالى وأحبها إليه، وهذا الفريق من الناس ترى أعمالهم غالبة مؤكدة بطهارة الضمائر وصفاء البواطن، فاليسير من أعمال هؤلاء يقوم مقام الكثير من أعمال غيره فلصحة نظر هذه الطائفة

---

(١) رواه الترمذى عن ابن مسعود رضى الله عنه بلفظ: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «ألا أخبركم بمن يُحرم على النار أو بمن تحرم النار عليه؟ تحرم على كل قريب هين لين سهل» وقال: حديث حسن.

تصدر عنهم الأعمال صالحة مرضية لأنه يغلب عليهم الذل والانكسار والتواضع، وبهذه الأخلاق تصلح الأعمال ويقلّ فيهم التكبر والتجبر وخبث البواطن، وبدون هذه الأخلاق تفسد الأعمال.

القسم الآخر من الناس وهم الذين تغلب عليهم صعوبة الأخلاق وقسوة القلب، وهذه الطائفة يتداخل أعمالهم خلل لكثرة غلظهم وضعف تميزهم وخراب بواطنهم.

علامة قسوة القلب

فعلامة قسوة القلب جمود الوجه فترى وجه أحدهم كأنه صفحة لبنة أو حجر قد صوّر منه وجه لا ماء فيه، فلا تلمح عليه شيئاً من تهلل البشرية لغلظ دمه وكثافة جبلته فلا يكاد صاحب هذا القلب يتبسم ولا يضحك، وتقلّ الرحمة والشفقة فى هذا القسم من الناس غالباً، وهو قسم ردىء فى السلوك، بين بواطنهم وبين الخيرات منافرة أكيدة، ويغلب على أصحاب هذا القسم ثقل الأرواح والأخلاق المكروهة، وربما غلبت عليهم الأهواء والمجادلة فى سلوكهم وأكثر تدين هذا القسم التعصب والتقليد لوقوف أذهانهم، ولكون أبصارهم مقصرة عن النفوذ فى الأشياء، فإنما لهم الظواهر والعمل على ما غلب عليه العرف وجرت به العادة، ويتصعب عليهم من قسم الخيرات الأمور القلبية وأحوال البواطن، فيكون شأن هذا القسم من بين الطوائف ملازمة الأعمال البدنية، والأخذ بظواهر الأشياء، ولا يتعبون أنفسهم فيما يتعلق بأعمال القلوب وأسرار البواطن، فطريق ذلك عليهم مسدود، فالسبق لأرباب القلوب وبنورهم يهتدى هؤلاء، فأرباب رقة القلوب منهم الأبدال والعارفون فهم أهل السبق والتقدّم، وأما أهل القسم الثانى فمنهم العمال والأحبار والمجتهدون فى كل خير، ولكن بينهما بون بعيد

وتفاوت كثير، فقد خلق الله سبحانه خلقه بحكمته المتقنة فجعلهم أطواراً مختلفين، فطائفة من الناس بواطنهم سليمة حسنة، فقد اجتمع لهم سلامة البواطن إلى صلاح الظواهر وهؤلاء أعلى الطوائف، فإن ترسمت هذه الطائفة فى الطاعات، وتفرغت للعبادات جاء منهم الصلحاء والأولياء، وطائفة أخرى دون هذه الطائفة، وهم قوم بواطنهم سليمة وأخلاقهم حسنة إلا أن ظواهرهم متدنسة بشيء من أمور هذه الدنيا، وأعمالهم قاصرة يغلب عليهم حب الدنيا والطلب لها، فهؤلاء أحوالهم متقاربة يرجى لهم الرجوع والإصلاح، لاسيما إن كانوا أصحاب عقول، فإن صاحب العقل لا يكاد يفوته الرجوع إلى ربه تعالى ولو طال شروده عليه، إذ عقله يردّه إلى مولاه لأن شأن التمييز أن ينتهى بصاحبه إلى ما هو الأعود عليه الأصلح له، وإن كان غارقاً فى غمرة الدنيا، وطائفة أخرى من الناس ظواهرهم حسنة يغلب عليهم السكون ولين الكلام والدخول فى شيء من العبادات، وربما كانوا أصحاب علوم وكلام فى السلوك إلا أن بواطنهم رديئة مملوءة كبراً وطوياتهم خبيثة، فأحوال هذه الطائفة مع مولاهم صعبة يخاف عليهم الانحطاط وانقلاب الحال، لاسيما إن كانوا أصحاب رياء وطلب سمعة،وقلوبهم قلّ أن يفوتها ذلك، فإن كانوا كذلك مع فساد بواطنهم فقد ساءت أحوالهم وتكمل نقصهم، وتمت خسائرهم، وخيف عليهم من سوء الخاتمة: نعوذ بالله من مكره، ونسأله السلامة من الفتن.

التوسط فى الأعمال وعدم الاعتماد عليها

عليك أيها الأخ بفعل الخير، وابتغ بأعمالك وجه الله تعالى، وإياك والغلوّ والإفراط فى الأعمال فإن الخيرات إذا اقتصد فيها وقعت موقعاً حسناً، وإذا أفرط فيها تعلقت بها الأهواء، وصارت من قسم النفوس ألا ترى

إلى قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم فى الحديث الصحيح «لكنى أنام وأقوم وأصوم وأفطر وآتى النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»[1] قال بعض العارفين، ما أمر الله تعالى العباد بأمر إلا أتبعه إبليس إما بالزيادة فيه أو النقيصة فيه. وقال آخر: الإفراط فى الدّماثة كبر، والإفراط فى البشاشة سخف، والإفراط فى الشكر ملق. هذا يعلمك أيها السالك كيف تقتصد فى أمورك ولا تغلو فى شيء من أعمالك، فقد يفسد على الإنسان عمله وهو لا يشعر لغلبة الهوى عليه، والأصل فى هذا أن النفوس لها نوع تعلق بشيء من أعمال الخير: إلا أن ذلك الشيء لا أصل له ولا حقيقة، فقد يظهر من الإنسان الرقة واللين ويكون ذا قلب قاس، تكون رقته ولينه من نفسه لا من قلبه: فهذا كثيراً ما يقع، وكذا البكاء قد يغلب على أقوام قساة القلوب، تكون نفوسهم ضعيفة وقلوبهم قاسية ولا معوّل على ذلك.

المدار على ما يصدر من القلب

الاعتماد على ما يصدر من القلوب لا على تحامل النفوس، وكذا سائر الأخلاق كل ما تعلق منها بالنفس فلا يحتفل به فإنه لا أصل له، وإن كان مما يعجب به الناس، فإذا أردت أن تميز بين ما يصدر عن القلوب وبين ما يصدر عن النفوس، فاستدل بالأثر على المؤثر، مثال ذلك أنك إذا رأيت إنساناً تظهر منه الرقة والبكاء فانظر إلى جبلته هل تناسب ذلك أم لا، فإن كانت جبلته تناسب الرقة والبكاء، فاقض بأن ذلك صادر عن القلب، وإن كانت جبلته قاسية صعبة لا تناسب البكاء والرقة فاعلم أن ذلك من النفس لا من القلب، واستدل على جبلته بما تقدم من القول فيه فى الفصل قبل هذا من دلائل الوجوه على القلوب، ونعيد هنا طرفاً من الكلام نحو ما تقدم.

---

(١) رواه البخارى ومسلم بلفظ قريب منه.

فنقول : اعلم أن صاحب القلب اللين هو الذى يغلب عليه طلاقة الوجه وكثرة الابتسام، لأن الوجه دليل على القلب وخيال صورته، وهو كالظل مع العود لا يخالف الظل شكل العود بل يدور معه كيفما دار كذا حال الوجه مع القلب فكل ما يضمره القلب يلوح من الوجه فأرباب البصائر يعرفون القلوب من الوجوه لا يتخالجهم فى ذلك ريب، وأبلغ ما سمعت فى المعنى قول شعبة بن الحجاج رحمه الله : إنى لأرى قفا الرجل فأعرف ما فى قلبه، قيل له فوجهه، قال : تلك صحيفة تقرأ، وإذا كان القلب قاسياً رأيت الوجه صعوباً عبوساً لا يكاد صاحبه يبتسم، ويظهر على صاحب القلب اللين الإلف للإخوان، والحنين إلى الأوطان والأسف على ما مضى من الزمان : كما قيل إذا أردت أن تعرف وفاء الرجل فانظر إلى حنينه إلى أوطانه وحزنه على من درج من إخوانه، وكثرة أسفه على ما مضى من زمانه، فقد اتضح لك إذاً أن الرقة واللين يشترك فيهما أصحاب القلوب وأصحاب النفوس، إلا أن صلاح القلب وإن كانت النفس مسيئة خير من صلاح حال النفس والقلب فاسد ،لأن قسوة القلب حالة رديئة، وهى أقوى أسباب الشرور والمعاصى. قال مالك بن دينار : ما ضرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب، والخطاب من الرّب تعالى إنما يوجه إلى أرباب القلوب قال الله تعالى ﴿ إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ﴾[١] وقال تعالى فى ذكر النفس ﴿ إن النفس لأمارة بالسوء ﴾[٢] وقال تعالى فيما خاطب به موسى عليه الصلاة والسلام : وذمّ نفسك فهى أولى بالذمّ وناجنى حين تناجينى بلسان صادق وقلب وجل. واعلم أن ليس للقلب شيء من الأمور الصحيحة إلا وللنفس فى مقابلته ما

---

(١) ق : ٣٧ .
(٢) يوسف : ٥٣ .

يشابهه ويلتبس به، وكما جعل الله تعالى للقلب الإرادة جعل للنفس التمنى، وكما جعل للقلب المحبة جعل للنفس الهوى، وكذا الرجا للقلب والطمع للنفس، والخوف للقلب والقنوط للنفس، وهذا كلام يحتاج إلى روية ونظر : ومما يوضحه لك أنك ترى الرجل قد يكون عليه دين ولا يؤديّه، ويكون معه شيء فيتصدّق به ويترك دينه، فهذا هو الخير الذى يصدر من النفس لأن من النفوس نفوساً تكون مجبولة على المروءة والارتياح بالبذل، فصاحب هذه النفس يلتذ بالعطاء كما يلتذ بالمنع اللئيم، وكذا قوم يفرطون فى واجب ويطلبون نفلاً كما ترى من هؤلاء الذين يشغفون بالإكثار من الحج مع التخليط فى جهات المال الذى ينفق فى الحج وإهمال التقوى فى كثير من الأمور وربما حج أحدهم ماشياً ويتهاون فى الصلاة : روى عن الحسن البصرى رحمه الله أنه قال يقول أحدهم : أحج أحج قد حججت، صل رحماً، نفس على مغموم، أحسن إلى جار، وكذا قوم يكسبون مالاً حراماً، ثم يصرفونه فى وجوه البرّ فهذا كله راجع إلى النفوس كما عرفتك، لا تعلق له بالقلوب قد جعل الله إفراط الأمور للنفوس وجعل الأمور المعتدلة للقلوب، فإذا رأيت الأخلاق والعلوم والعبادات بسكون وطمأنينة، فاعلم أنها صادرة عن القلوب وأصحابها أصحاب عقول، وإذا رأيتها مزلزلة ورأيت بصاحبها الطيش والرعونة فاعلم أنها صادرة عن النفوس وأصحابها أصحاب هوى، زهداً كان ذلك أو علماً أو أى شيء كان، لأن الأهواء تفسد العقول وتزلزلها، فشأن الهوى الإفساد أين حلّ، فإن تعلق بالعقول خبطها وأزعجها، وإن خالط الأديان دنسها ووحشها، فترى الإنسان يكون حسن التدبير جيد السلوك حتى يخالط تدينه بشيء من الهوى فتراه إذ ذاك مختلط الأمر سيئ الحال ممقوتاً بين الناس، لأن شأن الباطل إذا خالط الحق

يفسده، فإذا كان الهوى يفسد العقول والأديان، فما ظنك به إذا تعلق بأبناء الدنيا الضعيفة أنفسهم كيف يكون حالهم؟ فكل ما تفسده الأهواء تصلحه العقول، فالهوى فى مقابلة العقل، إلا أن الهوى يسفل بصاحبه ويهوى به، والعقل يسمو بصاحبه ويرفعه، فشتان ما بين القسمين، فترى صاحب الهوى كالأعمى لا يهتدى لطريق بل يعميه هواه عن طلب شيء ما له حقيقة ولا يفكر فى عاقبة أمر يحاوله، بل دأبه وعادته مشاراة الناس وكثرة الخصومات وتضييع عمره فى الهوى والمفاضلة بين الأئمة. وأما أرباب العقول فإنهم مشغولون بأنفسهم يحكمون أعمالهم بالنيات الصالحة ويغتنمون أوقاتهم اغتناماً ويجتهدون فيما يقدرون عليه ويتأسفون على ما لا يقدرون عليه.

مراعاة آداب العبودية

مع الخلق ومع الخالق

ينبغي لك أيها الأخ أن لا تفرط فى التعزز وشدة الأنفة فإن ذلك مذموم يخرجك إلى حدّ الكبر وتفوتك خيرات كثيرة، وتخيل إليك النفس أن ذلك من الزهد، وهو ما يحفظ على أهل الخير ناموسهم وطريقهم، وذلك تغليط من النفس وهوس مضرّ لأن شأن الإنسان فى نفسه العلوّ والجراءة وطلب التوحد والرفعة على الناس، فالنفس لا تزال تطلب ذلك إن تمكنت منه بطريق من طرق الدنيا وإلا تحيلت إما بشبهة من علم أو زهادة يترفع الإنسان بذلك على الناس وتميل النفس إلى ذلك بحيلتها، وربما غلب عليها الهوى فيتوهم الإنسان أن الذى يأتيه حسن أو أنه مما لا بأس به، وهو على الخطأ وهو لا يدرى لغلبة الهوى عليه كما يقال: إن بعض المشايخ ما شرب ماء قط فى اليوم الصايف حيث هو صاحب حلقة وجمع، وبعضهم ما رأى زنده قط ولا شيئاً من بدنه ويستتر لئلا يُرى شيء منه، وبعضهم يترك على رأسه خرقة

لئلا يبين شيء من رأسه، وهذا كله شعبة من الكبر لا مدخل له في الدين بل هو من هوى الأنفس» إذ طريق السلف الأوّل سهولة الأخلاق والبذلة والتهوين في الأنفس " وقد كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يأكل على الأرض ويجلس على الأرض ويقول: إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد»[1]،وليس التنطع والصلف من طريقة أهل الدين في شيء، بل هو من زخارف العرف يستحسنه العوام لغرابته، وإذا أردت معرفة برهان ذلك فانظر إلى سيرة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وإلى ما يقال عنه وعن أصحابه من سهولة الأخلاق والتهاون بالأنفس العزيزة، وكذا روى عن موسى عليه الصلاة والسلام أنه كان يستظلّ في عريش ويأكل ويشرب في نقير من حجر فإذا أراد أن يشرب كرع كما تكرع الدابة تواضعاً لله تعالى عز وجلّ، وهذا كله راجع إلى ما قدّمت لك من القول فيه من محافظة السادات على مقام العبودية وتباعدهم عما هو خاص بعزّة الربوبية وأن لا يروا بعين إعزاز وتعظيم إذ العزّة عندهم خاصة بالله الواحد القهار، فشأن رجال الحق تعالى الوقوف عند حدّ البشرية في جميع ما يحاولونه في أكلهم وشربهم ولباسهم وجميع أنحائهم ويرون الأنفة من كل ذلك نوعاً من الكبر الذى ليس من شأن البرية فيقفون عند حدّهم ويتأدبون مع ربهم، وكذا لا يفرطون في إعزاز أنفسهم بحيث يعظم عليهم أن يعابوا أو ينتقصوا أو يقال في أحدهم ما يكره، إذ يرون أنفسهم أهلاً للعيوب وضعاً منهم لأنفسهم وتهويناً منهم في أعراضهم وما يقال فيهم وإيثاراً للكمال والعزّة لله الواحد القهار.

من ذلك ما روى أن الله تعالى أوحى إلى موسى عليه السلام: إن لم تطب

---

(١) رواه أبو يعلى وابن سعد والبيهقي.

نفساً أن أجعلك علكاً فى أفواه الماضغين لم أكتبك عندى من المتواضعين، وكذا روى عن سفيان الثورى رحمه الله تعالى أنه قال : من أحبّ أن تجمع الناس على مدحه ولا يذكره أحد بسوء فذلك منافق، وكذا لا ينبغى للإنسان أن يتجاوز حدّه، فلا تبلغ به العزّة إلى حدّ يأبى أن يسأل إذا احتاج بل ينبغى أن ينزل عن مقام الرفعة إلى مقام الذلّ والانكسار حيث قد أريد به ذلك فليتلق أمر ربه بالأدب والقبول، قد جاء فى الحديث « من احتاج ولم يسأل ومات فهو فى النار» وإن جمحت بك نفسك وشق عليها ذلك فاذكر حال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقد سألوا عند الحاجة، فإن موسى والخضر قد سألا لما أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما، وكذا روى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما زال عنه ملكه واحتاج سأل :

فإذا عرفت أحوال هؤلاء السادات ومسألتهم عند الحاجة هانت عليك نفسك وتنازل قدرك فى نظرك فلا تطمعنّ فى العز فتطلب دوام ما اعتدته من رخاء العيش وعلوّ الحال فى موطن يراد بك فيه الإذلال والابتلاء فتعادى ربك فتنقهر فتخسر آخرتك مع ما قد فاتك من دنياك لأن الأحوال تحول وأمور الدنيا تزول فتأدب بين يدى مولاك وقف عند حدك تسترح.

فتلمح أيها الأخ هذه الأمور وقف عند غوامضها وتخلق بها إن كنت طالب حق وكن كما قيل: من أحبّ نفسه نظر لها. وتقرّب إلى مولاك بما ترى فى هذا الكتاب من أحوال هؤلاء الخلص الأخيار الذين شأنهم معاملة ربهم فيما ينفع عنده ويزلف لديه، فإذا كان الإنسان ذا وجاهة ورفعة عند الناس فينبغى له أن يخفض من نفسه وأن يعامل الله تعالى بكسر شىء من وجاهته فيساعد الناس على ضروراتهم ومصالحهم فيشفع للمنكسرين، ويكون وصلة للفقراء إلى الأغنياء، وإن ذهب بشىء من وجاهته عوضه الله

تعالى بما هو خير له، ومما نحن فيه أن قوماً ينسبون إلى الصلاح ويحسنون ظنون الناس فيهم يردون الفتوح التي يتواصلون بها، وهذا منهم ضعف رأى وقلة علم أو سوء دخيلة حفظاً للناموس ومراعاة لمدح العوام، لأن فى الأخذ كسراً وفى الامتناع منه ترفعاً وتعززاً، والهوى يخلب النفس ويغلظها، فلميل النفس إلى الترفع يتوهم الإنسان أن امتناعه من الأخذ زهداً، وليس كذلك ويقوى هذا الوهم على هذه الطائفة استحسان العوام للامتناع من الأخذ، وذلك غلط لا ينبغى للعاقل أن يبنى عليه أمر دينه فهو من حماقات الجهال، لأن العوام أكثر ميلهم مع الباطل «ونهى النبى صلى الله عليه وآله وسلم لعمر رضى الله تعالى عنه حيث أعطاه فردّ - معلوم. وقال له يا عمر إذا آتاك الله شيئاً من هذا المال من غير مسألة فخذه فإن كنت محتاجاً إليه فتموّله وإن لم تكن محتاجاً إليه فاصرفه إلى غيرك»[1] وليس من شيم الأخيار ترك ما ينفع عند مولاهم حفظاً للناموس ومراعاة لمدح العوام لأن شأن العارفين إيثار مرضاته تعالى سواء كان فى ذلك إعزاز لجانبهم أو كسرهم وهوانهم فى أعين الناس لأنهم يرون الأهمّ مراعاة جانب المولى تعالى.

حكم الأخذ من أموال السلاطين

فالسلاطين مثلاً إذا أعطوا أحداً شيئاً للشهرة والذكر بين الناس، فالأولى أخذه لأنه إن كان محتاجاً إليه فليصرفه في ضروراته، وإن كان غنياً عنه فليصرفه إلى الفقراء والمساكين فإنهم مستحقون دون غيرهم. فإن قال قائل قد يكون ردّه من جهة خوف حرمته، فإن أموال السلاطين الغالب عليها الحرمة. قلنا: هذه الأموال الحرام التى فى أيدى السلاطين مجهولة ولا يمكن

(١) رواه النسائى بلفظ قريب.

ردّها إلى أربابها فيجب صرفها إلى أرباب الضرورات من الفقراء والمساكين إذ لا سبيل إلى غير ذلك ولا ينبغى إتلافها ورميها فى البحار، فهذا الرجل الصالح إذا حصل بيده شيء من أموال السلاطين، فإن كان من الحرام الذى تقدم ذكره فينبغى لهذا الصالح أن لا يفوته بل يقبله ويصرفه إلى أربابه من هؤلاء المستضعفين الهلكى الذين يتعذر عليهم القوت، إذ من المعلوم أنه إذا ردّ هذا المال فإنه يذهب على هؤلاء الضعفاء الذين هم مستحقوه. وقد كان الحسن البصرى- رحمة الله تعالى عليه - مع رسوخ قدميه وجلالة قدره يقبل صلة الحجاج ،وعلم الحسن معلوم، وقد روى عن ابن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه كان يقبل صلة السلطان ويقول لا أسأل أحداً شيئاً ولا أردّ ما رزقنى الله تعالى. فإن قال قائل: فالأوّلون قد ردّوا صلات السلاطين قلنا: ردّوا فى موضع الردّ، وأخذوا فى موضع الأخذ، فإن الشافعى رضى الله تعالى عنه ردّ صلة الرشيد حيث كان المجلس غير لائق بالأخذ، فإن الشافعى وعظ الرشيد فلان قلب الرشيد ورق، وكان الغالب على المجلس أمر الآخرة خشوعاً ورقة فما كان الأخذ لائقاً، وقد قبل الشافعى من الرشيد فى غير ذلك المجلس حيث كان الأخذ لائقاً فإن الأحوال تختلف، وأيضاً فإن ذلك الردّ كان فى زمان الرخاء، وسعة الأرزاق إذ كان فى الناس رمق ولم يكن فى أزمان الأوّلين كأزماننا هذه فى ضيق الأرزاق وقلة الفوائد، ولو كان الأوّلون الذين ردّوا صلات السلاطين فى أزماننا هذه لأخذوا الأموال وتفقدوا بها ضرورات هؤلاء المستضعفين اليوم الذين قد أضرّت بهم الأحوال ومالت عليهم الأزمان، فلا شيء أفضل من النظر فى أحوال هذه الخليقة المقهورة وتفريح صغارهم ،فاحذر أيها الأخ أن يلبس عليك الشيطان فيخفى عليك وجه الصواب أو تقصد قصداً سيئاً فتراعى جانب المخلوقين إيثاراً لحسن اعتقادهم

فيك ليقال إن فلاناً ردّ جائزة السلطان لأن الردّ والامتناع من الأخذ يكسب النفس تجبراً وعلواً لا حاصل له عند الله تعالى، إذ المعوّل عليه عند العارفين أصحاب الصدق والتحقيق ما ينفع عند المولى تعالى وإن جرّ ذلك عليهم طعناً في جانبهم وكسراً لوجاهتهم وكذا العادة فيما خلص من أعمال البرّ أن يكسر أربابها وتوحشهم فى نظر العوام، ولكنها ترفعهم عند الله تعالى فأيما أحب أن ترفع عند الله تعالى عظمته أو فى نظر العوام؟ فليت شعرى إذا فتح للعبد مائة دينار فألهمه الله أن تفقد بها مائة بيت من هؤلاء المساكين المحرومين فسرّهم ووسع عليهم وفرّح صغارهم فأيما أفضل وأولى عند العقلاء ذوى النظر الصحيح : ردّها والامتناع من قبولها أو صرفها إلى هؤلاء المساكين ؟ فلا يشك عاقل أن صرفها إلى هؤلاء المحاويج المحرومين أولى، فلا شيء أضر على الإنسان من طلب العلوّ والتجبر فى سلوكه، إذ من شأن العارفين الخلص الرضا بالذل والانكسار ومراعاة صفة العبودية لكيلا ينازعوا شيئاً من صفات الربوبية إشفاقاً منهم وحذراً لأنه قد قيل : من طلب البقاء والفناء والعز فقد نازع الله تعالى صفاته، وكذا روى أن الرب تعالى قال لموسى عليه السلام فى الخطاب « ما خلقت خلقاً ينازعنى فى ملكى غير النفس، فإن أردت رضاى فخالفها » .

أيها السالك لا تهمل ما ينفعك عند مولاك

فعليك أيها الأخ بطريق المخلصين الصادقين واحذر بليات الطريق، فلا تراع ناموسك وتهمل ما ينفعك عند مولاك فإن ذلك يفسد عليك حالك ويخبط عليك سلوكك فلا تعوّلنّ على عقول بعض العوام ممن ضعف علمه وغلب عليه هواه من تعظيمهم واستحسانهم لطرق بعضهم ممن ينتمى إلى الزهد، ويأتي بأمور منكرة مستغربة ليست من طرق أهل الخير ولا يرتضيها

أهل العلم ولا لها حاصل فى الدين، لأن هؤلاء العوام المساكين لقلة علمهم أكثر ما يلهجون ويتابعون هؤلاء الذين يغربون ويخرجون عن سنن الصالحين فى زيهم ويخالفون عرف الأخيار فى أقوالهم وأحوالهم، فترى العوام المساكين دأبهم هجران أصحاب السنن وإطراحهم وموالاتهم لهؤلاء المغربين المدّعين الذين أتباعهم النوكى (أى الحمقى) والسفهاء، وهذا كله من انقلاب الزمان وفساد الأحوال، ولكثرة البدع وأربابها فى وقتنا هذا قد ضعف جانب أهل الخير وانقبضوا وسكتوا على مضض مراعاة لأقدارهم وحفظاً لأنفسهم لما يرون من قوّة الباطل وكثرة أهله وقلة أنصار الحق، فبذلك فسدت الأحوال واستولى الجهال، فافهم واسأل ربك الخلاص من فتن هذا الزمان فليتأسّ ذو الهمة بالإمامين الهاديين أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما، وليعتبر بما روى عن القوم من تواضع ولين مع قوّة إلى حدّ يعجز عنه ذو المسكنة والفاقة مع جلالة أقدارهما ومكانتهما من الإسلام.

اجتناب سيدنا أبى بكر الصديق والفاروق عمر لهوى النفس

روى أن الإمام أبا بكر الصديق رضى الله تعالى عنه لما وُلِىَّ الخلاف قالت جويرية من الحى: وُلِىَّ أبو بكر الخلافة إذا لا يحلب لنا منائحنا، فقال بلى يا بنية إنى لأرجو أن لا يمنعنى ما دخلت فيه عن خلق كنت عليه فكان يحلب للحىّ شياههم، وربما أتى إلى أهل المنزل فيقول: أتحبون أن أحلب لكم؟. وقال عروة بن الزبير رضى الله تعالى عنهما: رأيت عمر رضى الله تعالى عنه، وقد حمل قربة ماء على ظهره وهو يمرّ بها فى الأسواق فقلت له يا أمير المؤمنين لا يصلح لك ذلك، فقال بلى: إنه أتانى وفود العرب سامعين مطيعين فدخلت نفسى نخوة فأحببت كسرها فذهب بها حتى صبها فى بيت امرأة

أرملة من الأنصار، فاحذر أيها الأخ السالك أن يلبس عليك الشيطان فيريك الباطل في صورة الحق فتتوهم أنك تعمل لله تعالى وأنت تعمل لنفسك ولا تدرى، فقد قيل : إن الشيطان ليفتح للعبد تسعة وتسعين باباً من الخير حتى يوقعه في باب من الشر، فينبغي لك أيها الأخ أن تحضر فهمك لهذه المعاني لتحكم أعمالك بالنيات الصالحة، فبذلك تنزل البركات وتنمو الخيرات، وإذا قلّت المعاملات للرب تعالى وضعفت أسبابها قلت الخيرات وارتفعت البركات ونزلت العقوبات من السماء إلى الأرض وعمت الغموم وفسدت أحوال الخليقة، هذه الأمور لازمة لا تكاد تخطئ، فأصلحوا أعمالكم أيها الإخوان لتصلح أحوالكم، وعاملوا الله تعالى معاملة حسنة فإن الله تعالى لا يضيع أجر المحسنين، فالعبد مجزى بنيته معطى بحسن طويته، فإن صدق ربه تعالى ووالاه تولى الله تعالى حفظه وحماه : كما ذكر أن سيدنا عليا رضى الله تعالى عنه قال فى خطبته : إلا أن أبا بكر أوّاه منيب ، ألا وإن عمر بن الخطاب ناصح لله فنصحه الله تعالى ألا وإنهما خرجا من الدنيا خميصين : أى جائعين.

عمار القلب وخرابه بالصدق والكذب

ينبغى لك أيها الأخ أن تجعل الصدق نصب عينيك ومقدمة أمورك، فقد قيل : إن الصدق سيف الله فى أرضه، ما وضع على شىء إلا قدّه.

واعلم أن الصدق بمعنيين : صدق اللسان وصدق القلب،.

فصدق القلب هو أصل صدق اللسان وهو عمدة القوم ومعولهم.

وصدق اللسان حسن. لكن صدق القلب مصدره وأصله لأنه يدل على

عمارة الباطن ونزاهة النفس.

الكذب وإن كان قبيحاً سيئاً، لكن كذب القلب أقبح وأضر لأنه يدل على خراب الباطن وفساد حال النفس دناءة ولؤماً ويلزم منه أشياء رديئة تزيد على الكذب يدل الكذب عليها لأن الإنسان إذا هانت نفسه عليه ولم يبال أن يراها بعين الخساسة والنقيصة دلت حالته هذه على الدناءة وعلى الوضاعة، فنافت حالة القرب من الرب سبحانه وتعالى، والإنسان التام يشفق أن يرى هو نفسه بعين النقيصة، وإن لم يطلع على حاله أحد فصاحب الكذب يهون على نفسه العيب والنقيصة ولو اطلع عليه كما قيل:

ما كذب كذاب قط إلا من هوان نفسه عليه، فاعلم إذاً أن صدق الباطن لا يميل القلب عن نهج الصحة، بل تكون العدالة شعار الباطن، فإذا عمر الباطن بتعويد الصحة واستشعار الصدق تعذر على اللسان حينئذٍ أن يفوه بزور أو يورد كذباً لأن اللسان ترجمان القلب لا يؤدّى إلا ما ألقى إليه فإذا كان القلب صادقاً، فكيف يورد عليه الكذب هذا مما لا يمكن، فبان لك أن الباطن إذا عوّد الصحة صارت له حالة وملكة، فلو رام الإنسان أن يكذب تعذر عليه لبعد باطنه عن الكذب، وكذا كل خلل يظهر من الإنسان فى قول أو فعل فهو لخلل من الباطن إما من ضعف العقل أو لهوى يقهر الإنسان فيختلط سرّه، فصاحب الهوى إذا صحا ندم على ما فرط منه. وأما الضعيف العقل فليست له أوقات صحو فلا يفطن للخلل الداخل عليه ولا يرجى صلاحه، فافهم واجهد تصب بعون الله ومشيئته.

التحذير من العمل لغير الله تعالى

قد قررنا الكلام فى تصحيح العزائم وحسن النيات، وإعمال الهمم عند مباشرة الأعمال والآن نذكر فى هذا الفصل التحذير من الدخول فى شيء من أعمال البر لغير الله تعالى، قال النبى صلى الله عليه وسلم « لا تطلبوا العلم لتباهوا به العلماء وتماروا به السفهاء وتتجبروا به في المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار»[1] وكذا ورد «إن الرب سبحانه وتعالى قال فى بعض الكتب السالفة: إني ليس كل كلام الحكيم أتقبل إنما أنظر إلى همه وهواه فمن كان همه وهواه لي جعلت صمته ذكراً ونظره عبراً» وكذا ينبغى لك أيها الإنسان أن تحذر التحلي بشعار الزهاد وقصدك أن تتميز به عن الناس لتعرف بذلك ولتكرم به أو تسأل به شيئاً من عرض الدنيا الدنيئة، فإن ذلك صعب عند الله تعالى، ينبغى للسالك أن يتقيه ولا يهون فيه، فإن ذلك يفتح عليه أو أبواباً ضارة تفسد عليه قلبه وهو لا يدرى، قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: عامل الدين للدنيا جزاؤه من الله النار، فالإخلاص أصل عظيم هو أثبت دعائم الإيمان، وعليه المعول عند العارفين، وهو على قدر إيمان العبد ومعرفته بالله عزّ وجل فمن كان إيمانه قليلاً كان إخلاصه ضعيفاً، فإذا صفا القلب واستنار واشتد تعلقه بالرب تعالى يصبر العبد إذ ذاك موالياً للحق جلت عظمته فحينئذٍ يخلص العبد فى الأعمال ويجانب الرياء. قال العارفون: إخلاص العبد من قوة اليقين.

القلب أصل الإخلاص والرياء

اعلم أن الإخلاص يتولد من صحة القلب وقوّة اليقين، والرياء يتولد من فساد القلب وضعف اليقين. واعلم أن الإخلاص لا يتأتى لكل أحد ولو رامه،

(١) رواه الترمذى بلفظ « من طلب العلم ليجارى به العلماء أوليمارى به السفهاء أو يصرف به وجوه الناس إليه أدخله الله النار » .

لأنه على قدر الجبلات والخلق فأما أصحاب الأنفس الضعيفة والقلوب الفاسدة فيتعذر عليهم أن يتوجهوا بقلوبهم إلى الله تعالى عند المعاملات لضعف بصائرهم فبصائرهم كأبصار الخفافيش لا تستطيع أن تقابل الشمس لضعفها، يضطرهم الحال أن يتقووا بنظر المخلوقين عند المعاملات لما قد جبلوا عليه من ضعف الأنفس وفساد القلوب، ولا كذلك أرباب القلوب الصافية المنورة فإن الصدق شعارهم لو رام أحدهم أن يخرج عنه لم يستطع لقوّة بصيرته وقوّة فطرته، والرياء هو الشرك الخفى، وهو ذنب عظيم مبعد للعبد عن ربه تعالى، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « من سمع الناس بعلمه سمع الله به سامع خلقه وحقره وصغره»[1] فالمؤمن يرى ولا يرائى : أى يظهر من عمله ما يقتدى به، فهذا قصد حسن والتمييز بين من يرى ويرائى إنما هو بالنية.

مذمة الرياء وكراهية البقاء فى الدنيا

فاحذر أيها الأخ أن ترائى بشىء من أعمالك، فإن الرياء طريق ردىء يفسد الأعمال ويخرب القلوب، قال عبد الله بن أبى زكريا رحمة الله عليه : بلغنا أن الرجل إذا راءى بشىء من عمله أحبط ما كان قبل ذلك، هذا صعب جداً، وهذا ابن أبى زكريا حجة فيما يقول وكان ولياً من أولياء الله تعالى، وكان مجاب الدعوة، وهو الذى طلب منه عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه أن يدعو له بالموت فدعا له فمات، والقصة معروفة، روى أن عمر بن عبد العزيز أرسل وراء ابن أبى زكرياء، فقال له عمر بن عبد العزيز إن لى إليك حاجة، قال ابن أبى زكرياء مقضية يا أمير المؤمنين، قال عمر : أحب أن تحلف لى عليها، قال لا حاجة، قال بلى أحب أن تحلف لى، فحلف له ابن أبى

(١) رواه أحمد فى مسنده .

زكـريا، فـقـال له عـمـر : أحب أن تدعـو لي بالموت، فـقـال ابن أبي زكـريا : لا تفعل يا أمير المؤمنين اعف عني إذا أكون عدوّا لأمه محمد صلى الله عليه وآله وسلم، ولبئس الوافد أنا للمسلمين، فقال عمر : إذاً لا أعفيك، فقال ابن أبي زكريا ولا بد ؟ فقال عمر لابدّ، فقال ابن أبي زكريا : اللهم اقبضـه إليك. قال وولد صغير يلعب بين يديه، فقال عمر : وهذا الصغير الصبي فإني أحب أن يكون معي، فقال ابن أبي زكريا : اللهم، وهذا الصبي أيضاً ثم قال : اللهم لا تبقني بعده، قال ففي ذلك الأسبوع مات عمر بن عبد العزيز والصغير وابن أبي زكريا، رحمة الله تعالى عليهم أجمعين فهذا الرجل الموفق عمر بن عبد العزيز قد كانت الدنيا تحت حكمه شرقاً وغرباً ما خالفه فيها مخالف ولا نازعه فيها منازع، وكان عمره نيفا وثلاثين سنة، وكان ملكه ساكناً والرعية محبة له، ومع ذلك متبرم بالحياة ومؤثر للموت، فانظر إلى أرباب العقول الصحيحة، والأنفس الفاضلة كيف يتبرمون من البقاء في هذه الدنيا الدنيئة أنفة منها وشرفا من أنفسهم لما يتلمحون بدقة نظرهم من معايبها فعقولهم تتعبهم لما ينكشف لهم من بواطن أمور الدنيا، فهم أتعب الناس، وإن كانت الدنيا موافية لهم، والجاهل المسكين لقصور نظره لا يرى إلا زخارفها ومحاسنها ولا رؤية له تريه ما خفي من عيوبها فهو أفرح الناس بحاله وأقرّهم عيناً بعيشه، وربما كان حقيراً فقيراً كما قيل :

ذو العقل يشقى في النعيم بعقله   وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

فكلما تمّ عقل الإنسان استقامت أحواله فيميل العبد إذ ذاك إلى العدل والصحة ويطلب الفضيلة والكمال فيبقى بينه وبين الدنيا منافاة وغربة فيصير وحيداً بين الناس لاعتدال أخلاقه فيتعب ويطلب الخلاص من هذه الدنيا الدنيئة والفوز بالدار الآخرة كما قال سيدنا عليّ رضي الله تعالى عنه

وكرم وجهه :

جزى الله عنا الموت خيراً فإنه أبرّ بنا من والدينا وأرأف

يعجل تخليص النفوس من الأذى ويلحق بالدار التى هى أشرف

وإذا قلّ علم العبد بالرب تعالى وضعف إيمانه فسد قلبه واختلط سره فلا يكاد صاحب هذا القلب يخلص عملاً لكثافة الحجاب بينه وبين مولاه تعالى فيغلب على هذا العبد عمى القلب ويصير دأبه التزين وينفتح عليه الرياء، ويطلب السمعة فتأتيه الشرور والبليات من كل جانب فلا يلومنّ أحداً على ما يراه منه من سوء نظره، فإن ذلك قسمة من العقل، فالذى تراه فى الناس من معان خافية وما اشتملت عليه بواطن أحوالهم تلمح بعيون القلب، ولكن الناس فيهم من يكون قلبه أعمى ليس له علم إلا ما يراه بعينه أو يسمعه بأذنه أو قلد فيه غيره، ولكن طريق الرأى عليه مسدود لا سبيل له إليه ، ولانتشار هذه الخلة الرديئة فى كثير من العوام فسدت الأحوال واختلطت الأمور ومال العوام مع كل ناعق مما انتشر بين الحمقى ذكره وكثرت من السفهاء جموعه، سواء كان صاحب حق أو صاحب باطل، فتقاعست إذ ذاك نفوس العارفين أنفة وغضباً ونفوراً عن الخلق لتكاثر المبطلين ولكونهم قد بقوا غرباء لا قرناء لهم حيث أخذ موضعهم هؤلاء الأراذل أصحاب الدعاوى والجهل، فهؤلاء القوم المساكين يضيعون زمانهم فى الخرافات والأشياء الفارغة ظناً منهم أنهم فى شىء من الدين، ولو فطنوا لسوء حالهم لحزنوا على أنفسهم، فافهم واعمل على الحقيقة فقد محضتك النصيحة.

ومن أحبّ القرب إلى الله تعالى ما قد جربه العلماء وأهل المعرفة، هو

النفع المتعدى من اصطناع المعروف جبراً للقلوب المنكسرة وإطعاماً لذوى الأكباد الجائعة وإدخال السرور على المساكين المحرومين، فهذا القسم من الخير يؤثر تأثيراً عجيباً في القلوب، قيل: أوحى الله تعالى إلى ذى القرنين عليه السلام: ما خلقت خلقاً بعد العقل أحب إليّ من المعروف وسأجعل لك عليه علماً، فمن رأيتنى قد حببته إليه ويسرته عليه، وألهمت الناس الطلب إليه فأحببه وتوله، فإنه أحب الخلق إليّ، ومن رأيتنى قد بغضت إليه المعروف وعسرته عليه وصرفت وجوه الناس عن الطلب إليه فأبغضه وابرأ منه فإنه أبغض الخلق إليّ، فإذا أردت أن تنالك رحمة الله عز وجل ولا تفوتك عواطفه فارحم خلقه وتحنن عليهم، فالراحمون يرحمهم الرحمن، ومن لا يَرْحم لا يُرْحَم، فافهم.

السعيد من ألهم الخير

واعلم أنك كما تدين تدان، فالرب تعالى مجده وتقدّست أسماؤه له عواطف عميمة ورحمته وتحننه على خلقه وله رحمة سابغة لخلقه، فالسعيد من ألهم الخير فاقتفى رحمته وتحننه على خلقه، والشقيّ من ألهم الإضرار بهم والقسوة عليهم، نعوذ بالله من درك الشقاء، ألا ترى إلى ما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن بغياً من بغايا بنى إسرائيل رأت كلباً يلهث من العطش فسقته فشكر الله تعالى ذلك لها وغفر ذنبها »[1] فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف لحقت هذه المرأة الخاطئة برحمتها لهذا المخلوق المحتقر، فما ظنك بالأخيار من أبناء جنسك، وربما كان بعضهم فاضلاً عليك فى الدين وفى الأخلاق وإن كان ظاهره لا يعطى ذلك، فعليك بالرحمة وسماحة الخلق وسلامة الصدر وإن لم يكن ذلك فى طباعك فتطبعه

---

(١) أخرجه العقيلى فى الضعفاء، وابن حجر فى لسان الميزان.

وتخلق به واحذر خطايا القلوب وخفايا الذنوب وما أحسن ما قال بعضهم : يا أصحاب الذنوب الخفية احذوروا العقوبة الخفية ، ولخواص الحق جل جلاله فى هذا الباب أسرار لطيفة يعاملون الله تعالى بها أمام حاجتهم لتنجح مطالبهم ،وكمثل طلب الشفا لمرضاهم لكن على وجه فيه غموض لا يطلع عليه كل أحد ، فمن الأسرار التى قد جرب العارفون المعاملة بها هو أنهم يكثرون الصدقات على ضعفاء الخلق عند النوازل وهجوم المخاوف والأمراض وعند الوقوع فى أيدى الظلمة لكنهم يزنون ذلك بميزان عقلى فيبذلون فى كل نازلة شيئاً على قدر البلية وعظمها وخفتها فيجعلون لما خف أمره معاملة دون ما صعب فيه المطلوب وإذا عز المطلوب وعظم بذلوا لذلك شيئاً جليلاً فافهم هذا فإنه ينفعك إذا وفقت لفهمه والمعاملة به ، فإذا عرف الإنسان هذه الأسرار ، فقد منح شيئاً من علوم ذوى الخصوص ، ﴿ واتقوا الله ويعلمكم الله ﴾[1] .

التواضع لخلق الله تعالى

ومن محاسن المعاملات تواضع ذوى الأقدار للأخيار المستضعفين كعيادة المريض المسكين وتشييع جنازة الغريب الفقير زيارة ذوى الخمول. روى أن الرب تعالى قال فى بعض الكتب المنزلة مما أوصى به الأمم السالفة : سر ميلاً عد مريضاً ، سر ميلين شيع جنازة ، سر ثلاثة أميال أجب دعوة ، سر أربعة أميال ذر أخاً فى الله تعالى ، وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام كان إذا دخل بيت المقدس عمد إلى أدنى خلقه فيه من الضعفاء والمكافيف وأهل المسكنة فيجلس إليهم ويقول : مسكين جلس مع المساكين ، وروى أن الرب تعالى قال فى ما خطاب به موسى عليه السلام : إياك والكبر فلو لقينى

(١) البقرة : ٢٨٢ .

جميع خلقي بمثقال حبة من خردل من كبر لأدخلتهم النار،ولو كنت أنت وإبراهيم خليلي، يا موسى أتحب أن لا أنساك؟ فقال نعم يا رب، فقال أحب الفقراء وادن منهم وبشر الصديقين وأنذر المذنبين، وما أحسن ما روى عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذا المعنى، وهو قوله «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد أن أطيلها فاسمع بكاء الصبي فأتجوّز فيها، لما أعلم من وجد أمه عليه»[١] فينبغي للإنسان أن يكون سمحاً سهلاً خارجاً من طريق الهوى.

حياة القلب

واعلم ان للقلب حياة وموتاً، فعلامة حياته إشراق نور العقل فيه فينشرح الصدر إذ ذاك فتخمد النفس وتنقمع وتنكسر سورتها لبطلان آلتها وهو الهوى، لأنه إذا قويت العقول تلاشت الأهواء، قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم «لما خلق الله العقل، قال له أقبل فأقبل، ثم قال له أدبر فأدبر، ثم قال له اسكن فسكن، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أحب إليّ منك ولأسكننك في أحب الخلق إليّ فبك آخذ و بك أعطي، ثم خلق الحمق. فقال له اقبل فأدبر، ثم قال له أدبر فأقبل، ثم قال له اسكن فاضطرب. فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أبغض الخلق إليّ منك ولأسكننك في أبغض الخلق إلي»، فترى العبد إذا كان قلبه حياً محبباً إلى الناس عليه أنس ساكن البال صالح الأفعال وقوراً مهيباً لما عليه من أنوار الحق لائحة ترتاح النفوس برؤيته - ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ، وترى العبد إذا كان ميت القلب كاسف البال سئ الأفعال مضطرباً في الأحوال عليه وحشة ومقت منقاداً بزمام الهوى قد أعماه هواه أن يرى معايب نفسه فإذ ذاك يتحير القلب ويضطرب بمنزلة إنسان قد خرب بيته، لأن القلب مسكن العقل، فهو يستوحش لخراب مسكنه.

موت القلب

واعلم أن موت القلب قد يكون من أصل الخلقة، وقد يكون بما يطرأ عليه من الأحوال السيئة المميتة للقلوب، أما القلب من أصل الخلقة فهو القلب القاسي الذى لا يلين ولا يخشع ولا يألف ولا يرحم فصاحب هذا القلب يكون ردىء الفطرة ليس له استئناس بباطنه فتراه يكره الوحدة ويميل إلى الجموع ويحب الهذر والقيل والقال والدخول فى الفضول، فصاحب هذا القلب يكون بعيداً من الله تعالى سئ الفطنة فى أمور الدين لا يكاد ينتفع بموعظة ولا إرشاد كما قيل:

إذا قسا القلب لم تنفعه موعظة ... كالأرض إن سبخت لم ينفع المطر

والقلب الذى يطرأ عليه الموت هو الذى يكثر صاحبه المعاصى ويقل من عمل الخيرات.

أصحاب القلوب الحيّة

أما صاحب القلب الحيّ فهو الرحيم الهين اللين السهل القريب الآلف المألوف، فترى صاحب هذا القلب مستأنساً بباطنه محباً للوحدة كارهاً للقيل والقال، مجانباً للشرور والخصومات فليبشر صاحب هذا القلب، فإن قلبه موضع نظر الرب وخزانة حكمه وأسراره: روى أن الرب تعالى قال فى بعض الكتب السالفة: إن السماوات والأرض لم تطق أن تحملنى وضقن من أن يسعنى ووسعنى قلب عبدى المؤمن الوادع، فهذا القلب هو سرّ العالم وينبوع العجائب وموضع الأسرار الإلهية، وللقلوب التى هذا شأنها أحوال غريبة، وللنفوس فى مقابلتها أيضاً أفعال عجيبة إلا أن بين القلوب والنفوس بوناً ومضادة من إصلاح أحوال القلب وسوء ما يصدر عن النفوس، لكن قد تشتبه أفعال أصحاب النفوس بأحوال أصحاب القلوب لأن أحوال أصحاب

القلوب أفعال خيرات وإظهار كرامات، وأما أفعال أصحاب النفوس فإنها أفعال نارية شيطانية لها التأثير البين فى أحوال هذا العالم بلوى وفتنة يبتلى الله بها عبادة كما شاء، وقد وقع فى وقتنا هذا التباس عظيم وتشبيه خفى على طريق الصالحين من أقوام لم يؤثر عنهم كثير صلاح سوى الإكثار من الدعاوى والإدلال على الله تعالى ولم ينقل عن هؤلاء شىء من أخلاق الأخيار المتقدمين، لأن الصالحين لم ينقل عنهم مع جلالة أقدارهم واجتماع الكلمة على صلاحهم شىء من هذه الدعاوى، ولا قيل عن أحد منهم أنه تفوّه بتزكية نفسه ولا إدلال على الله تعالى.

من أحوال الصالحين

بل كان شأن الصالحين الأول كثرة البكاء والخشية من الله تعالى مع حسن أعمالهم وكرم أخلاقهم، حتى قد كان بعضهم وهو زبيد الشامى رحمة الله تعالى عليه، وكان من كبار الصالحين يدور على عجائز الحىّ فى اليوم المطير يقول: من لها فى السوق حاجة، من تريد أن أشترى لها شيئاً من السوق؟ وهذا إبراهيم بن أدهم رحمه الله تعالى مع اجتماع الخلق على صلاحه قد بلى بجندى ضرب رأسه بالمقرعة فطاطأ رأسه وقال اضرب رأساً طالما ما عصى الله. وقال أبو سلمة، كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أبو العيال يسلم على أبواب النساء الأرامل ويقول: ألكنّ حاجة، وأيتكن تريد أن اشترى لها شيئاً ؟فيرسلن معه بحوائجهن، ومن ليس عندها شىء اشترى لها من عنده، وكان يأتى أبواب المغيبات التى أزواجهن غيب فيقول: إن كان عندكن من يقرأ لكنّ الكتب، وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقرأ لكنّ، وكان يمرّ بالمغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بهن إلى أزواجهن. وقال بعضهم: كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه إذا قدم عليه الوفد سألهم

عن حالهم وأسعارهم وعن من يعرف من أهل البلاد، وعن إبراهيم أنه كان يسأل عن أميرهم هل يدخل عليه الضعيف وهل يعود المريض؟ فإن قالوا: نعم حمد الله تعالى، وإن قالوا: لا كتب إليه أن أقبل، فهذا شأن الصالحين الصبر والاحتمال للذلّ محافظة على طريقهم مع الله تعالى ومراعاة لمقام العبودية لأنهم قد علموا يقيناً أنهم متى انكسروا وارتفعوا عند الله تعالى ومتى علوا وارتفعت أحوالهم انحطت منزلتهم عند الله تعالى، لأن خواص الحق تعالى شأنهم المحافظة على مقام العبودية ذلاً وانكساراً وصبراً واحتمالاً، فهم يتحفظون أن يقاربوا شيئاً مما اختص به الرب تعالى، وهو التجبر والتكبر والتعاظم والعلوّ، وهذا سرّ عظيم من أسرار العارفين فمن عرفه وقدر على العمل به فقد وقع على الكنز، هذا شأن الصالحين الأوّلين فاعرفه، وهذا القدر كاف فى التنبيه لأصحاب العقول السليمة فهم بعقولهم يستخرجون سرّ هذا القول إذ لا يمكن إطلاق الكلام بالكلية فى هذه الأمور الغامضة كما قيل:

إنى لأكتم من علمى جواهره   كى لا يرى العلم ذو جهل فيفتتنا

وأما هذه الأحوال الحادثة فى وقتنا من الدعاوى والإدلال على الرب عز وجلّ فمن أصعب الأشياء عند الله تعالى وأخوفها عاقبة على أربابها قال بعض العارفين، عقوبة أصحاب الدعاوى سوء الخاتمة، ولذا روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أنه قال: من قال: إنى عالم فهو جاهل، ومن قال: إنى برّ فهو فاجر، ومن قال: إنى فى الجنة فهو فى النار.

وأما هذه الخوارق التى تشتبه بالكرامات وتصدر من أقوام لم يؤثر منهم شىء من أخلاق الصالحين، وشأن أربابها الدعاوى والكلام المنكر الذى لم ينقل مثله عن الصالحين الأوّلين، فهذه فتن ومحن وليست تدل على صلاح

أربابها لأن هذه الخوارق لها أصول ترجع إليها يعرفها الحذاق وأهل الفهم، فتارة تكون هذه الخوارق منسوبة إلى الشياطين كما هو معلوم من أحوال الكهنة فإنهم يوالون الشياطين ويستحضرون الجن والشياطين بأشياء تختص بالشياطين وتناسب طباعهم فتخبرهم الشياطين بالمغيبات، وتارة تكون الخوارق مستندة إلى أصحاب السيميا، وهو علم منهيّ عنه شبيه بالسحر يتعاطاه أقوام لا دين لهم يجوّعون أنفسهم ويهجرون الأشياء المباحة كاللحم ونحوه، فيحصل لهم نوع كشف وتسلط فى هذا العالم فتنة وبلوى ابتلى الله تعالى بها عباده كما شاء، فهذا النوع من الكشوف والخوارق التى تشتبه بكرامات الصالحين قد يظهر مثلها على أيدى الراهبين ومشركى الهند فلم يصر لها اختصاص بالدين، بل هذه الأشياء تارة تحصل بما تقدّم ذكره، وتارة تحصل لقوم يجوعوّن أنفسهم في البيوت المظلمة لأن الإفراط فى الجوع والتضييق على النفس يحدّ النفس ويجعلها فعالة نافذة فى الأشياء، وهذه الأمور وإن كانت مستغربة معجبة فليس لها تعلق بالدين عند الله تعالى ولا تنفع، بل ربما ضرّت لقوله عليه الصلاة والسلام « كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار»[1] فالجوع الذى هو أقوى الأسباب فى هذه الكشوف والخوارق منهيّ عنه لقوله عليه الصلاة والسلام « كل عمل ليس عليه أمرنا فهو ردّ»[2] وكذا قوله صلى الله عليه وسلم: "إياكم والوصال، إياكم والوصال إياكم والوصال»[3] فكيف تلحق هذه الخوارق بالكرامات؟ وإنما تحصل بأمور منهى عنها، والكرامات إنما تجرى على أيدى الأخيار

---

(١) رواه ابن ماجه وأحمد والبيهقى وابن حبان .

(٢) متفق عليه .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم .

والصلحاء الذين يلازمون السنن، ويكثرون من الأعمال الصالحة، فهم محل قابل للمواهب الإلهية ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أمّ الكتاب ﴾[١] فافهم الفرق بين القسمين.

التحذير من الخوارق التى تصدر من غير الصالحين

ومن هنا قد تحير الناس فى شأن هؤلاء الذين يظهر منهم الكشوف، وهم غير ملتزمين لقواعد الدين كالصلاة ونحوها وطائفة قد أشكل عليهم أمرهم ولم يدروا على ماذا يحملون أمر هذه الكشوف حيث قد رأوا أربابها غير ملتزمين لقواعد الدين، وطائفة من الناس قد اعتقدوا الولاية فى كل من تظهر منه هذه الكشوف كائناً من كان، وهم عوام زماننا ، وهذا خطأ إذ الكشوف كما قد بينا لك تظهر من الصدّيق والزنديق بالأسباب التى بيناها لك، وأسبابها خفية مختلفة كما تقدّم، وقد أفسدت هذه الكشوفات والأخبار بالمغيبات التى تشبه كرامات الصالحين أحوال الناس فى زماننا هذا والتهى الناس بها عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وآله وسلم والنظر فى أعمال الصالحين المتقدمين اشتغالاً بهذه الخرافات، فلا تغترنّ أيها الأخ الصالح بهذه الخوارق ولا تخلد إلى أربابها، فإن هذه الخوارق قد تصدر عن قوم خبثاء يخدعون بها الناس ولقلة علم هؤلاء العوام المساكين يحسبون هذه الضلالات كرامات فيحسنون الظنّ فى أربابها فيضلون بمتابعتهم وهم لا يشعرون، ولكن التمييز بين كرامات الأولياء وما يصدر عن هؤلاء الخبثاء الفتانين عسير جداً لا يكاد يتخلص منه وليس إلى معرفة ذلك سبيل إلا أن يعتبر حال الإنسان الذى تصدر عنه هذه الأفعال الخارقة من سداد أفعاله

---

(١) الرعد : ٣٩ .

وحسن تدينه وحميد طرائقه فما تكاد تلتبس عليك إذاً كرامات الأخيار وفتن الأشرار، وهذا علم دقيق فتنبه له تنتفع إن شاء الله تعالى.

الحكمة الإلهية من خلق الهوى

الهوى وإن كان مذموماً، ولكنه حكمة من حكم الرب تعالى فى خليقته لأنه قوّة النفس ولولاه ما احتملت الأنفس هذه الكلف الشاقة، وهذه الأثقال المتعبة التى قد بليت بها لأن النفس إذا اعتراها الكلال والملال وكادت تجنح بصاحبها جدّدت بشيء من الهوى، ولهذا المعنى ينبغى للعاقل أن يروّح نفسه بشيء من هذه الملاذ المباحة، إلا أنه لا يكثر من ذلك ولا يفرّط فيه. ألا ترّى إلى قول الشاعر:

أفد طبعك المكدود بالجد راحة | بنجـــم وعلله بشيء من المزح

ولكن إذا أعطيته المزح فليكن | بمقدار ما تعطى الطعام من الملح

وقد تقدّم لنا من القول أن الأمور المقتصد فيها مما يقتضيه العقل، وإذا أفرط فيها عادت أهواء فكذا الهوى اليسير منه لا بأس به، فإذا أفرط الإنسان فيه صار مسرفاً مذموماً: مثاله أن الاقتصاد فى الأكل حسن، فإذا أفرط الإنسان فيه خرج إلى حد الدناءة والنهم وكذا الملبس الاقتصاد فيه حسن وزينة، فإن الله جميل يحب الجمال، واللباس الوسط شعار طائفة من الصالحين، فإذا أفرط الإنسان فيه وتغالى فى قيمته وقصد به الترفع على الناس والبذخ غلبه الهوى، وخرج إلى حد الكبر والخيلاء ودخل فى باب الإثم وكذا كل شيء القصد فيه حسن والإفراط فيه هوى مذموم، فالهوى معنى عجيب وسرّ من أسرار هذه الخليقة فلولاه لعدمت مصالح الأسفار

والمساعى وعدم كثير من منافع الناس، وأقصر التجار عن كثير من الأسفار والمساعى في البر والبحر وتعطل على الناس كثير من معايشهم وأسبابهم فقد جعل الله بحكمته المتقنة الهوى سبباً لتواصل العالم في معايشهم وأرزاقهم ولتقوى نفوسهم على متاعب الدنيا فيحملهم على اقتحام الأخطار وركوب البحار ولولا ما يستروح إليه هؤلاء المساكين أهل الكدّ والتعب بما ينفس عنهم من الأهواء لأضرت بهم الهموم والغموم، فأهل الدنيا المساكين يفرحون بالأماني المستبعدة ويرتاحون إلى الأهواء المتوهمة ويتنشطون بما يؤملونه من جمع الأموال تفاخراً ومباهاة، ولو قنع هذا الفريق من الناس بأخذ قدر الضرورة لتعطلت مصالح الناس ولتعذر إيصال الأمتعة إلى الأقاليم البعيدة فهذه حكمة الهوى فافهم، فأصحاب الحق تعالى لم يخلقوا لهذا المعنى فشأنهم غير شأن هؤلاء المستعبدين بأهوائهم الذين قد سخروا لمصالح الغير وهم لا يشعرون، فترى الأشياء إذا خلت من الأهواء فاترة جامدة مزهوداً فيها كائنة ما كانت دنيوية كانت أو غير دنيوية ؛ لأن النفوس هى التى تقيم الأشياء وتزينها، والنفوس تحتاج إلى غذاء وغذاؤها الهوى فإذا فقدت النفوس غذاءها كانت بمنزلة الدابة إذا فقدت العلف فكيف تقدر على حمل الأثقال؟ وكذا الأسفار، فافهم هذا السر فترى أهل ضعف الغرائز متى عدموا الهوى تبرّموا وضاقوا بالأشياء ذرعاً واعترتهم كآبة بخلاف أحوال العارفين ذوى البصائر، فإن ما عندهم من حسن اليقين يقوى أنفسهم على احتمال المجاهدات والمشاق، فيكون ذلك لأنفسهم بمنزلة الهوى لأهل ضعف الغرائز وقلة التميز فافهم، فالهوى خلق مستعذب إلا أن عاقبته إما مضرّة أو حسنة حسبما ينشأ منه، وما أحسن قول أمير المؤمنين سيدنا عمر بن

الخطاب رضى الله تعالى عنه فى المعنى : الحق ثقيل إلا أنه مرىء، والباطل خفيف إلا أنه وبىء ، فأصحاب الأعمال والمجاهدات يحتملون ويصبرون فكأنهم يقولون بلسان حالهم :

وإنا لنلقى الحادثات بأنفس ... كثير الرزايا عندهنّ قليل

يهون علينا أن تصاب نفوسنا ... وتسلم أعراض لنا وعقول

التحذير من الهوى

هذا الكلام الذى قدّمناه في ذكر الهوى :هو الهوى الذى يتعلق بالقلوب والديانات فهو أصل عظيم فى فساد الأعمال و الأحوال وهو منبع الضلالات و منشأ الشرور والبليات، ومنه تتولد الأحقاد والخصومات، وأهل الفهم عن الله تعالى قد حذروا منه تحذيراً شديداً حتى قالوا معنى قوله صلى الله عليه وآله وسلم «أخوف ما أخاف على أمتى : الشهوة الخفية»[1] قالوا هى أعمال البر بالهوى. قال أهل المعرفة : الهوى يلازم ضعف العقل فمتى كان الإنسان أوفر عقلاً كان أقل هوى، فإذا قلّ الهوى كره الإنسان الشرور والمماراة والخوض في الفضول وكره التطلع إلى معايب الناس، وأحب الأمور الصحيحة ولزم ما يعنيه وأخلص الطاعات ورحم الخلق لعلمه بأنهم مقهورون تحت الأقضية مغلوبون بالمقادير، وإذا قلّ عقل الإنسان مال إلى الأشياء الدنيئة ولهج بالفضول وأكثر الخوض فيما لا يعنيه وتراه حنقاً على الناس دأبه الخلاف ومشاراة الناس، هذه الأمور لازمة لهذه الطائفة لا تكاد تخطيهم، وليس لأرباب هذه الأحوال حيلة فى الخلاص منها إلا

---

(١) رواه أحمد والحاكم والبيهقي بنحوه .

بالالتجاء إلى الله تعالى وإدامة المسألة وبهذا يخلص العبد من هذه البليات، فإذا أنكر العبد شيئاً من أخلاقه وأحسّ من نفسه برداءتها فليستغث بمولاه ليصلح فساده ويطهر خبثه برحمته، فإن للدعاء تأثيراً بيناً. قال الإمام مالك بن أنس رحمه الله تعالى: ليس من السنة أن تجادل بالسنة، ولكن تخبر بها، فإن قبل منك، وإلا فأمسك.

صعوبة علاج هوى أهل التدين

واعلم أن هوى أهل التدين أصعب علاجاً من هوى أهل الجهالة، لأن أهل التدين إذا غلب عليهم الهوى لا يشعرون بقبح ما يأتون، بل يلبس عليهم الشيطان ويخيل إليهم أن ذلك من أجلّ القرب إلى الله تعالى ولا يشعر أحدهم لاستغراقه في الهوى، وذلك لكونهم يعرفون أنهم مجدّون في طلب مرضاة الله تعالى لا تتخيل إليهم الضلالة في أنفسهم، وأهل الجهالة على ثقة من أنفسهم أنهم على طريق الجهالة فهم يردعون عن الهوى بأيسر علاج من أهل التدين ،وذلك لكونهم يعترفون بأمراض أنفسهم، وأهل التدين ربما غلب عليهم الهوى وهم على ثقة من أن الباطل لا يدخل عليهم، وقد قال ارسطاليس في ذلك معنى عجيباً، وذلك قوله: من لم يعرف بمرضه فلا سبيل إلى برئه.

واعلم أن هذه النفوس مجبولة على حب المغالبة والاستطالة على الناس، فإذا لم يتمكن الإنسان من إظهار ما في نفسه من أمر دنيوى حاول الاستطالة على الناس في أمر ديني كما ترى هذا في هؤلاء الذين شغفوا بالخوض في العقائد والمفاضلة بين الأئمة، وربما يتجرأ أحدهم على أقوام أخيار يوافقونهم

فى الاعتقاد والمذهب ويخالفونهم فى أهوائهم وقبح طرائقهم وعلومهم فينسبونهم إلى سوء المذهب وسوء الاعتقاد لمخالفتهم إياهم فى أخلاقهم وسوء مقاصدهم ،وهذا كله من غلبة الهوى لأن الهوى إذا غلب منع التمييز .

وقوم تظهر أهواؤهم فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فتراهم يفضحون الناس ويتبعون آثارهم ويتبجحون بأذاهم ، وربما نشأ من ذلك شرور عظيمة وآثار صعبة ، وهذا كله من فساد الزمان وسوء الأحوال . ألا يعلم هذا المسكين أن ذلك من ميل النفس إلى الشرور والمغالبة ولا يعلم المسكين أن الطريق إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إنما هو الرفق والملاطفة ، وأن يكون الإنسان فى ذلك كطبيب يداوى مجنوناً فلتكن نيته إنقاذ العاصى مما بلى به من الخطيئة .

وقوم يظهر هواهم فى استعمال الماء حتى لو أصاب إنسان ظاهر ثوب أحدهم بنداوة الوضوء لخاصمه ، ولذهب يغسل ما أصابه ، يضيع أحدهم عمره فى الهوس فى أمور متعبة تمقته عند الناس ولا يحصل بها إلا على التعب ومخالفة السنة . وأما هوى هؤلاء المبتلين بالشهوات الدنيئة من المطاعم والملابس ونحوهما فمعالجة أهوائهم أسهل من معالجة أهواء صاحب التدين لما أنبأتك من استعلاء نفوسهم وغلبتها لهم فلا يصغون لزاجر ولا لائم .

واعلم أيها الأخ أرشدك الله تعالى : أن هذه الأهواء بلية من بلايا هذا العالم ، والطريق إلى تقليلها وإذهابها تسكين النفوس من ظلماتها ومعاشرة الأخيار والتشبه بهم فى أنحائهم ومقاصدهم فإن شيمة العقلاء العمل على

حقائق الأشياء، فشأنهم التقرب إلى الله تعالى بمحاسن مراضيه فلا يكاد أحدهم يدخل فى أمر يقبح عليه، فترى العاقل سهلاً طلقاً والناس معه فى راحة، وترى الجاهل المتدين يمقت الناس ويمقتونه فهو دهره فى عناء، والناس معه فى بلاء.

تفاوت الناس فى درجات عقولهم

اعلم أن الله تعالى جعل هذه العقول لعباده أنواراً يستضيئون بها فى أصول الخيرات فى أمورهم قاطبة، فهم بتفاوتهم فى العقول تتفاوت طبقاتهم فى الأعمال الدينية والأحوال الدنيوية فلا يغرّنك ما ترى فى بعض الناس من زىّ وأبهة ولبس، فإن كان مع ذلك سداد وحسن تدبير فى الأفعال والأقوال وإلا فلا تحفل به ولا تعوّل عليه، فإن ذلك قد يكون فى أقوام ضعيفة عقولهم، فإذا ظهر سلطان العقل على الإنسان جاءته الصفات الحميدة والأخلاق المرضية والطباع الكريمة من صدق القول ونزاهة النفس والوفاء بالعهود والنظر فى العواقب وحب معالى الأمور والحياء والبشاشة وكتمان لأسرار والمداراة والصبر عما تدعو إليه النفس، فهذه الصفات لازمة لصحة العقل، وضدها الصفات الذميمة لمن ضعف عقله فإذا تمّ عقل الإنسان وقارب الكمال مال حينئذ إلى الزهد فى هذه الدار الدنيئة وعزفت نفسه عن هذه الملاذ الفانية. واعلم أن من لوازم العقل أن العقلاء أصبر نفساً، والجهال أصبر جسماً:

والصبر بالأرواح يعرف فضله صبر الملوك وليس بالأجسام

واعلم أن أكثر ما تكون العقول فى أصحاب القلوب الرقيقة اللينة فهؤلاء هم أصحاب الفهوم الثاقبة والآراء الصائبة، وتقلّ العقول فى أصحاب القلوب القاسية الغليظة، فإن أصحاب القلوب القاسية يقتحمون الأمور القبيحة ولا يبالون بالمذمة ولا يألمون أن يروا بعين نقيصة لقسوة قلوبهم وكثافة أرواحهم، وأكثر ما يكون الأشرار من هذا القسم فاعلم، فأصحاب هذه القلوب اللينة السليمة هم العارفون بسر هذا الوجود وما بنى الله تعالى عليه أمر خليقته فهم يعلمون بمقتضى علومهم ودقة فهومهم ،وهم فى راحة بما منحوا من الأفهام وعمارة الباطن، وعموم الناس فى خبط ونزاع، وقيل وقال، يضيعون العمر النفيس فى الهوس، ويلهجون بأمور فارغة يتوهمونها قربة وهى أهواء ضارة، فأصحاب الحق جل جلاله تثلج صدورهم بما منحوا من العلوم والفهوم كما قال الشاعر :

أنام ملء جفونى عن شواردها ويسهر الخلق جراها ويختصم

فالتعب كل التعب حتى يحصل للإنسان المعونة على نفسه ويعترف بعيوبها، ومن لا يتمكن من هذا المعنى فعلمه قاصر، فكم يحسب أنه على شىء، فإذا اعتبرت حقيقة حاله وجدت أعماله هباء منثوراً.

تفاوت مقامات الخلق

وقد تقدّم لنا ذكر مقامات ثلاثة من طرق العمال ونورده هاهنا زيادة إيضاح.

فنقول : اعلم أيها الأخ أن مراتب أهل الخير متفاوتة وطبقات الناس فى الأعمال مختلفة فكل رتبة من الخير عليها طائفة من الناس، فالأعلى من

الخيرات عليها خواص الملك جلّ جلاله وهم العارفون الذين ينقون الأعمال تنقية وتسمو نفوسهم وهممهم إلى النفائس منها ويبالغون فى الترتيب والتقرّب إلى الله سبحانه وتعالى بمحاسن الأعمال لأن الأعمال منها حسن وأحسن، فهذه الطائفة العالية لا يعاملون الله تعالى إلا بالأحسن لما منحهم الله تعالى من صفاء القلوب ونوّر مولاهم قلوبهم فأنارت بواطنهم ولذا صار اهتمامهم بتصحيح النيات وتحسين المعاملات، وتعلقت أسرارهم بربهم تعالى فى أغلب الأوقات فبذا حازت هذه الطائفة قصب السبق وتقدّمت على باقى الخلق.

وطائفة أخرى من أهل الخير دون هذه الطائفة المشهورة أهل خيرات وإكثار معاملات ولكن لا تبلغ رتبتهم إلى مقام الطائفة الأولى، لا أقول أن أعمال هذه الطائفة تقصر عن أعمال الطائفة الأولى، ولكن أقول أسرارهم وقلوبهم تقصر عن الوصول إلى حال أولى المرتبة الأولى.

وطائفة ثالثة من أهل الخير، وهى الطبقة الأخيرة من أهل الخيرات والمعاملات لكن خيراتهم قاصرة قليلة الجدوى معاملاتها يتداخلها خلل ويتعلق بها نوع هوى بحسب ما قسم لهم المولى من العقول الضعيفة وفى كل أهل هؤلاء الطبقات خير ولكن أحوالهم مختلفة ومراتبهم متفاوته « قل كل يعمل على شاكلته »[1] ويعتقد الفضيلة فى طريقته.

واعلم أيها الأخ أنك سترى جموعاً وطوائف قد اجتمعوا على نشر العلوم، وذكر أحوال الصالحين، فإن رأيت أفعالهم تناسب أقوالهم فكاثرهم وادن منهم وإلا فابعد عنهم فهو أسلم لك لما تقدّم أن الأعمال إذا خلت عن

---

(١) الإسراء : ٨٤.

صحة المقاصد انعكست على أربابها فغيرت قلوبهم وأفسدت بواطنهم كما أن من شأن الغش إذا سكن الباطن أن يعمى القلب ويضعف الرأى، فأصحاب سلامة الصدور هم أهل الفهوم والعقول.

الصالحون بين الحزم ولين الجانب

اعلم ان طائفة من أهل الخير هم الهينون الكرام المنخدعون. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم «المؤمن غرّ كريم، والفاجر خبّ لئيم»[1] فترى جماعة من الأخيار مغلبين، صدورهم سليمة، من دعاهم أجابوه، ومن رغب إليهم مالوا إليه ومن خدعهم انخدعوا له للينهم وسلامة بواطنهم وبعدهم من الخيانات، وقلة علمهم بالمجالات.

وطبقة أخرى من أهل الخير أعلى من هذه الطبقة، وهم أرباب العقول الراجحة والهيبة اللائحة الذين أمورهم محكمة حزماً وتيقظاً وفطنة وتحفظاً لا يكاد أحدهم ينقلب إلا بعلمه فيما أحبّ أن يتساهل فيه تكرّماً وانخداعاً: أن الكريم إذا خادعته انخدع، وهو لا يظهر ذلك. قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: لست بخبّ ولا يخدعنى الخبّ: وقال المغيرة بن شعبة رضى الله تعالى عنه: كان عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه أعقل من أن يُخدع وأكرم من أن يَخدع، فترى أهل هذا القسم الأخير لما أشرق عليهم من أنوار الحق ولاح عليهم من حسن مواهبه تعلوهم هيبة ويصير لهم سلطان على النفس تجلهم وتخضع لهم إذا قابلتهم تنقاد النفوس إلى تعظيمهم طوعاً وكرهاً، فهذه الطبقة الأخيرة أعلى رتب الخير فاعلم.

على قدر عقل الرجل يكون دينه

ومما يتعلق بما قدمنا القول فيه أن طائفة من الناس منقوصون يغلب على

---

(١) رواه أبو داود والترمذى والحاكم وابن حبان وأبو نعيم.

طباعهم الخبّ وخبث النفس فتشتبه أحوالهم بأحوال العقلاء، وليس أهل هذا القسم من العقلاء بما سنبين لك، فترى أهل هذا الخلق الذميم أخلاقهم شيطانية، وأذهانهم سريعة الإدراك، فهذه الطائفة إدراكاتهم حسية مرجعها إلى الأنفس، وذكرنا لهذا المعنى من العقل والخبّ لينبنى عليه لنا غرض مطلوب فى وضع هذا الكتاب، وهوما قدمنا القول فيه، أن الدين مرتب على العقل، فعلى قدر عقل الإنسان يكون دينه كما تقدّم، فالخبّ هو الرجل الخبيث الداهى، يقال رجل خبّ بفتح الخاء فيه خبّ بكسرها، والخبّ الذى تأتى منه الشرور والحيل بسرعة ويدق فهمه فى الرذائل، وهذا يكون من قوّة الحس لا تعلق له بالعقل، لأن الإدراك للحس، والتميز للعقل، وهذه طائفة مرذولة عند العقلاء يغلب عليهم عمي القلب وسوء الرأى، إذ لو كانت لهم آراء وفكرة صالحة لما اختلّ حالهم ولا اختاروا لأنفسهم المراتب الخسيسة من التصدّى للشرور وأذية الناس واحتقارهم، والإدراكات الخسيسة ليست بفضيلة ولا أصحابها معدودون فى قسم العقلاء، إذ كثير من الحيوان أجود حساً من الإنسان، ألا ترى إلى هذا الطير كيف يعرف فصول السنة واختلاف الأزمنة ما لا يعرفه الأذكياء من الناس ولا فضيلة لها، إذ الفضيلة لأرباب العقول، وهم أرباب الآراء الصالحة والأخلاق الحسنة والذين يغلب عليهم الخير وسلامة الصدر، فهذا الخبّ تراه نافذاً فى الشرور غلاباً للناس وتراه مع ذلك سيئ التدبير لنفسه مختلّ الأفعال، فلو كان هذا الخبّ صحيح العقل لكان هذا اختياره لنفسه، إذ ثمرة العقل حسن الاختيار، ألا ترى إلى قول الإمام الشافعى رحمه الله تعالى: لو أن إنساناً أوصى بثلث ماله لأعقل الناس لرأينا أن نصرفه إلى الزهاد فى الدنيا، وإنما قال الشافعى ذلك لجودة اختيارهم لأنفسهم من ترك الدنيا الدنيئة فلجودة اختيارهم جعلهم أعقل الناس، فافهم هذا فإن هذا دليل واضح.

ولكن قلّ أن يجتمع للإنسان صحة العقل مع جودة الحسّ، هذا لا يكاد يقع إلاّ نادراً، وإلا ففى أغلب الأحوال أنه متى جاد حسّ الإنسان نقص ذلك من عقله ومتى توفر عقله أضر ذلك بحسه، لأن صاحب العقل يكون ذا فكرة فتشغله فكرته بتفصيل الأشياء وتمييزها فيعزب ذهنه عن ضبط الأشياء وحفظها والذى يضعف عقله يقل فكره فيتوفر حسه على ضبط الأشياء وحفظها فلهذا صار أصحاب الحسّ أكثر خطأً وأقل تمييزاً وقل أن يجتمع لأحد صحة التمييز مع جودة الحفظ لعزّة الكمال، إذ الأشياء إنما تقع فى هذا العالم معاوضات ومحاسبات، إذا أعطى الإنسان شيئاً من جهة نقص بحسه من جهة أخرى، كما ترى ذلك فى العقول والأموال قلما تجتمع، وكلما صلحت حالة الإنسان ديناً وعقلاً ومروءة ساءت حاله فى دنياه وقصر به الحظ فلا يكاد يحظى من دنياه بطائل، لا تختلف هذه القاعدة إلا نادراً.
قيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام:

إنى لا أجمع لأحد بين الحذق والرزق، وهذه الحالة تقع فى الناس مراتب، فكلما ارتفعت طبقة الإنسان وقاربت حالة التمام انحط بخته بحسب ذلك وتجهمت له الدنيا فنفرت عنه ويبقى الإنسان حينئذٍ وحيداً كثير المشاكل محروماً فى أغلب مساعيه

إن المقدّم فى حذق بصنعته ... أنى توجه يوماً فهو محروم

وقال آخر:

لو كانت الأرزاق مقسومة ... بقدر ما يستوجب العبد

لصار من يخدم مستخدماً ... وغاب نحس وبدا سعد

واعتـــذر الدهـــر إلى أهلـــه وانتعـــش الســـؤدد والمجد
لكنها تجـــرى علـــى سمتهـــا كمـــا يريـــد الواحد الفرد

وقال آخر :

خليـلـى إن الصبـر فى طعمـــه مرّ وإن صبر الإنســان لا يصبر العمـر
وفى هذه الدنيـا خصـــال عجيبــة يســرّ بها نذل ويشقى بهـــا حرّ
ومــا كنت أرضى من زمانى بما أرى ولكنـــى أرضى بما حكم الدهر

وقال آخر :

قـل للـــذى بصـــروف الدهـر عيّرنا هـل عـاند الدهر إلا مَنْ له خطـر
فـــإن تكن عبثت أيدى الخطوب بنا ومسنـــــا من توالى صرفها ضرر
ففـى السماء نجـــوم لا عـــداد لها وليـس يكسف إلا الشمس والقمر

فهذا سرّ من أسرار العالم وسنة جارية ﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[1] .

الرجل العاقل الخيّر أفضل
وإن كان قليل العلم

وهذا الخبّ عند العقلاء فى النقيصة بمنزلة البليد الأبله الذى لا روية له، فهو فى مقابلة الأبله، إذ الخبّ والبلادة طرفا نقيصة والعاقل متوسط بينهما، وقد عرفت أن خير الأمور أوساطها . فهذا الخبّ قد يكون ذا علم وهيئة وترى الناس ويسترذلونه ويحتقرونه لخلوه من إشراق نور العقل ولكونه قد فاته الأصل وهو التحلى بلباس الخيرية، وترى العاقل الخير ربما كان قليل العلم والناس يبجلونه ويعظمونه لإحساس النفس بما عنده من تنوير الباطن

(١) الأحزاب : ٦٢ .

وسلامة القلب، وقد قيل: إن الخبّ شريك المغفل إلا أن الخبّ أسوأ حالاً وعاقبة. واعلم إذاً أن من شرط صحة العقل أن يكون معه شيء من الخيرية وسلامة الصدر كما أن الخبّ يلازمه الشرّ وخبث الباطن، وهذا الخبّ هو الخزبير الذى تسميه العامة كزبير، فالخزبير فى اللغة الرجل الخدّاع، والكزبير أن يتجاوز الإنسان حدّ العقل كما أن الشغف، هو أن يفرط الإنسان فى المحبة، وكل مذموم.

حاجة العقل إلى المعونة من الله تعالى

اعلم أيها الأخ السالك أن العقول لا تفى بنيل المطلوب كله حتى تمدّ بالمعونة وتساعد بالتوفيق منه سبحانه، فإن صاحب العقل قد يخطئ ويصيب فالعقول تدرك الأشياء وتميزها لكن الآراء أقصى غايات العقول، فالفكر خزانة الرأى ومرآته وبه يستبين للإنسان محاسن الأشياء من مقابحها، فالعقول قد تكون لأقوام ربما ساءت آراؤهم، فبالرأى تتفاوت طبقات الرجال وتتفاضل رتبهم، فالإدراكات والفهوم كثيرة غالبة فى الناس ولكن تكميل الآراء فيهم قليل، فبالرأى يتبين للإنسان مقادير الأشياء وبه يربى العاقل الأمور ويصانع (أى يفاضل) عن بعضها ببعض، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى: ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشرّ، هذا يعرفه الصبيان والنسوان، إنما العاقل الذى يعرف خير الخيرين وشرّ الشرين ويصانع على أحدهما بالآخر إذ ألجئ إليه، فافهم هذا يحصل لك منه علم جليل، فالعقول مواهب وقِسَم يَقسِمُها الله تعالى بين عباده كما يشاء لأن الله تعالى أعطى كل شيء من جودة قدر ما يحتمله، فالإنسان قد يكون عاقلاً ذا تميز تكثر إصابته ويقلّ غلطه حتى يصل إلى حدّ الرأى فحينئذٍ يرى عنده ضعفاً وقصوراً، وذلك كثير ما يقع للناس. فإذا رأيت الإنسان عادلاً فى

أفعاله وأحواله وأقواله ضبطاً يدور مع الأمور الصحيحة كيفما دارت فقد ضبط أحواله ضبطاً وقهر هواه قهراً. فأما أن يؤثر: أى يقدّم دينه على دنياه وهى المرتبة العليا، وهو الغاية، وإما أن يراعى أمور دينه مع مراعاة أمور دنياه، وهو دون حال الأوّل، وكل خير فاقض لمن هذه طريقته بصحة الرأى.

من أراد الصواب فليعتمد على الله تعالى

واعلم أيها الأخ أن صاحب الرأى هذا الذى ذكرناه قد يعتريه الخطأ والزلل، فالعبد قد يتمّ عقله ويصح رأيه وتكثر إصابته، ولكن قد يعرض له الهوى فيفسد عليه أحواله، وهو لا يشعر وقلّ أن يسلم أحد من الهوى، ولكن قد يقل ويكثر ويخفى ويظهر على قدر مغالبة العقل له وعلى قدر قوّة العقل وضعفه، فالعاقل يدارى هواه مداراة والسخيف يعجز عن ذلك لضعفه فيظهر هواه وسوء حاله بين الناس فقلّ أن يخلص أحد من الهوى إلا أصحاب الحق جلّ جلاله الذين له بهم العناية الأكيدة، فقد بان إذن أن العقول تصيب وتخطئ وأن الآراء هى أقصى غايات العقول، وقد يعرض لها الغلط والزلل، ثم إذا قدرنا سلامتها وصحتها قل أن تسلم من الهوى، وإذا اختلفت طرقها فعند ما يحيل العبد الرأى فى الأمر الذى ينحوه فإذ ذاك تختلف عليه الخواطر ولا يعلم وجه الصواب فذاك وقت استمداد المعونة وطلب التوفيق منه تعالى، فإذا كان للرب تعالى بعبده عناية ألهمه رشده فأراه وجه الصواب، وإن كان تعالى معرضاً عن العبد سلط عليه الشيطان فغلطه وزين له سوء عمله فغاية نظر العقلاء تنتهى إلى بذل الجهد وإعمال الرأى، ولكن قد يبقى عليهم ما ليس لهم به طاقة ولا فى دفعه حيلة، وهو القدر المحتوم الذى قد حارت فيه العقول وتقاصرت عن إدراكه الفهوم، فهو إذا نزل بطل

التدبير وصار الحكم للمقادير فهو كما قيل:

إذا أراد الله أمراً بامرئ ... وكان ذا عقل ورأى وبصر

وحيلة يعملها فى كل ما ... تأتى به مكروه أسباب القدر

أغراه بالجهل وأعمى قلبه ... وسلّ منه رأيه سلّ الشعر

حتى إذا أنفذ فيه أمره ... ردّ عليه عقله ليعتبر

فمن أراد إصابة الصواب وقلة الغلط فليعتمد على الله تعالى فى أموره كلها وليكلها إليه سبحانه بعد إعطاء الأشياء من الرأى والاجتهاد ما تستحقه، لأن تصاريف الأمور إليه يصرفها كيف شاء، فالعبد إذا أكثر الالتجاء إلى الله تعالى تعلقت به عنايته فقوّمه وسدّده، فكلما ضعف العقل رأيت الخطأ غالباً على الإنسان فإذا توفر مقدار العقل رأيت الخطأ نادراً قليلاً، فمن أراد إصلاح الأمور وتمامها فليراع ما قدّمنا القول فيه لأن العبد إذا أحسن قصده فى الطاعات وصدقت نيته فى المعاملات جعل الله تعالى لقلبه بصيرة يرى بها الأشياء المرئية فيرى الباطل باطلاً والحق حقاً، فالتعب كله على هذا، وهذا الذى ينبغى أن يكون مطلوبك فى مساعيك وفى مناحيك، فاحذر أن تخلط فيخلط عليك فحينئذٍ ترى الخطأ صواباً والصواب خطأ كما قيل:

إذا أخذل الله امرأ زال رأيه ... وإن كان قد ساس الأمور وجربا

فانتبه لنفسك أيها الأخ وتقرب إلى مولاك بالصدق تر العجائب فيما بينك وبين الوقوف على كنه الأشياء والاطلاع على أسرارها إلى أن تنطلق من أسر هواك وتتجرد من علائق نفسك فهناك تشرق عليك أنوار القبول وتلوح عليك آثار الوصول، فإذا كنت كذلك:

بدالك سر كان منك اكتتامـــــه ولاح صبـــاح كنــت أنت ظلامه

وكنت حجاب القلب عن سر غيبه ولولاك لـــــم يطبع عليك ختامه

فمذ غبت عنه حل فيك وطنبــت على موكب الكشف المصون خيامه

وجـــاء حديـــث لا يمل سماعه شهــيّ إلينـــا نثـــره ونظامـه

أيها السالك لا ترجو النفع من ينفر قلبك منه

اعلم أيها الأخ لأن الحق جلّ جلاله جَبلَ الخليقة على أمور عجيبة وحكم لطيفة يعرفها ذوو البصائر والفهوم، فقد تقرر عندهم أن الله تعالى خالف بين خلقه في الجبلات والغرائز فجعل مبنى صنعه في القلوب على الائتلاف والاختلاف والأنسة والتنافر، وقد يكون ذلك لا لسبب معلوم كما قيل:

تأبى قلوب قلوب قوم وما لها عندها ذنوب

وتصطفي أنفس نفوساً وما لها عندها نصيب

ماذاك إلا لمضمــــرات أحكمها من له الغيوب

فالرجل المنقوص ينفر من الرجل الفاضل، والأحمق يكره العاقل ويعيبه كما قيل:

وشأن صدقك عند الناس كذبهم وهل يطابق معوجّ بمعتدل

والدمث يذم الخصيف ذا الجد فترى الاختلاف بين أصحاب هذه الجبلات بيّنًا ظاهراً، فأحدهم يتبرّم بالآخر ويضيق به ذرعاً وإذا بلى أحد هؤلاء الأضداد بمقاربة الآخر فكأنه معه في سجن فترى الكريم من الرجال مبتلى

ببغض اللئام وذمهم كما قيل:

وقد زادني حباً لنفسي أنني بغيض إلي كل امرئ غير طائل
وإني شقيّ باللئام ولن ترى شقياً بهم إلا كـــــريم الشمائل

فالعقلاء إذا ابتلوا بهؤلاء اللئام والأضداد واحتاجوا إليهم في ضروراتهم اعتبروا ذلك من أنفسهم بما قد تقرر عندهم من ميل القلب ونفرته، فإذا رأى أحدهم باطنه ينفر من صاحبه علم أن صاحبه معه كذلك فاستبعد النجح من جهته، وإن كان باطنه مائلاً إليه يرجح عنده نيل المطلوب لما جعل الله بينهما من التناسب.

واعلم أن الشخصين إذا كانت بينهما مناسبة الحال إما صلاحاً أو غيره حصل بينهما التزام وميل حتى قد لا يحسّ الإنسان به من نفسه فربما كره الإنسان ظاهراً وتميله المناسبة إليه باطناً، وربما أنكر الإنسان حال صاحبه قبل أن تشعر النفس بالمناسبة فإذا تعارفت الأنفس توافقت وتصادقت.

واعلم أن الحال إذا أفرطت في المناوأة بين الشخصين تنافرت الأنفس وتباعدت تنافراً بيّنًا فلا يستطيع أحد الشخصين أن يقابل الآخر، وذلك إذا تضادّت الجبلات في الأخلاق التي تتحرك لها النفس كاللؤم والمروءة فيكون أحد الشخصين مفرطاً في أحد هذين الخلقين، والآخر في مقابلته كذلك، وأن يكون أحد الشخصين صاحب حق تماماً وكمالاً وينحط الحال بالآخر تنازلاً وإفراطاً في طرف الباطل فهذان الشخصان لا يستطيعان أن يتعاملا بل يكون بينهما العناد والبعاد والتباغض إن تمكنا من إظهار ذلك، وإلا فيكون باطناً، وإن لم يفرط الحال بين الشخصين في الأخلاق لم يكن بينهما هذا التضاد كله وأمكن تقاربهما واجتماعهما مداهنة ومداجاة. هذا سر الخليقة

فافهمه فلا ترجونّ النفع ممن ينفر قلبك عنه، فهذا باب عظيم النفع لمن رزق فهمه.

علاج تنافر القلوب

واعلم أن من ينفر قلبك عنه أن عنده من المقت لك مثل ماله عندك، فإن قدرت فارغب عنه، وإن لم يمكنك واضطررت إليه فتعمل فى صلاح قلبه لك بإصلاح قلبك له كما قال سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه: احصد الشرّ من صدر غيرك بقلعه من صدرك، وطريق ذلك أن تمثل لنفسك شيئاً من محاسنه، لأنه لا يخلو الإنسان من مكرمة ما وإن قلت وخفيت مثل سخاوة نفس وسماحة أو حمية، فإن هذه الصفات كثيراً ما تقع فى ظلمة الناس وجبابرتهم ثم تتناسى خصاله الدنيئة الذميمة وأبعد إحضارها من خيالك ليصير ميلك إليه مألوفاً به فإنه إذا ذاك يميل قلبه إليك بحسب ما صلح له من قلبك، لأن النفوس تطلع على النفوس ويحسّ بعضها بأحوال البعض فهى سريعة التقلب تختلف عليها الأطوار، فإذا كانت طباع البشر هكذا فيطمع العاقل أن يغير شيئاً من طباع هذه الخليقة فيجعل البغيض محباً أو يستزيد إنساناً مودّة، هذا مما لا يمكن ولا يطمع فيه العاقل، لأن النفوس بجبلاتها تختلف اختلافاً بيناً والمودّات التى بين الخليقة منها ما يكون سببه ضعيفاً لضعف النسبة التى بين الشخصين فلابد أن تتغير هذه المودّة بين هذين الشخصين وتنقطع، ومنها ما يكون سببه قوياً مستحكماً فتدوم المودّة بين الشخصين لقوة سببها، هذا إذا نظرت إلى أصول الجبلات بين الخليقة، وأما حكم الظواهر فلا معوّل عليه لأن الإنسان قد يظهر ضد ما فى قلبه فتقع فى ذلك المجانسة والمداجاة، فإذا كان الأمر كذلك فينبغى للعاقل أن يستكف شرور الخليقة بمداراتهم ويسكن نفوسهم تسكيناً، هذا هو عين المصلحة،

فمن وفق لفهم هذا والعمل به فقد أراح، واستراح.

واعلم أن قوة المناسبة تجمع بين الشخصين جمعاً أكيداً حتى إن الرجل الشرير قد يتأذى من شرير مثله ولا يرى عنده كثير حق عليه لقوّة المناسبة بينهما، وأن الخير ربما نفع الشرير فلا يثبت له عنده كثير ميل لشدّة المنافاة بينهما حتى لو بدا للشرير من الخير أيسر وهم من إذا ثارت نفسه عليه ثوراناً بيناً وإن كان له إليه إحساناً وكان محسناً فافهم واعجب وسل ربك السلامة من شر هذا العالم الذى هو كالبحر إليه السم.

الفرق بين العزة والكبر والعجب والفرح

ومما ينبغي التنبيه عليه أن تعلم أيها الأخ أن الكبر ردئ مفسد للقلوب وقد تقدّم أنه ليس للقلب شيء من الصفات الحميدة إلا وللنفس فى مقابلته ما يشابهه، فاعلم أنه قد يلتبس الكبر بالتعزز، فها نحن نبين لك الفرق بينهما. فالكبر من صفات النفس، والتعزز من صفات القلب، فالتعزز شأن المؤمنين والتكبر شأن المتجبرين، وقد ورد فى هذا المعنى كلام حسن يوضح لك ما قلناه. ذكر أن رجلا قال للحسن البصرى رحمة الله عليه: يا أبا سعيد إنك لعظيم فى نفسك، فقال لا والله ولكننى عزيز فى نفسى لأن الله تعالى يقول ﴿ ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ﴾[1]، وقد فرق الشاعر بين العزة والكبر فى قوله:

بنى جعفر أنتم سماء رياسة ... مناقبكم فى أفقها أنجم زهر

طريقتكم مثلى وهديكم رضى ... ومذهبكم قصد ونائلكم غمر

(١) المنافقون: ٨.

عطاء ولا منّ وحكم ولا هـوى   وحلم ولا عـجـز وعـزّ ولا كـبـر

ولقد أحسن الشاعر حيث ميز الأشياء عما يخرجها عن حدّ رتبة الاعتدال فى قبضيه إلى حدّ النقص، وهذا المعنى يناسب ما هو مذكور فى فصول هذا الكتاب، وإنا إنما أردنا الآن تمييز العزّ من الكبر فى قول الشاعر: وعز ولا كبر، فالتعزز له حدّ لا ينبغى للعبد أن يتجاوزه فيخرج إلى الكبر، والتعزز هو أن يصون الإنسان نفسه عن الأمور التى تشين فى دينه ومرءوته كمن يمشى فى الطريق مكشوف الرأس ويظن أن هذا من التواضع وهذا خطأ ورذيلة وربما كانت هذه الحالة التى يتواهم صاحبها أنها كسر نفس وتواضع تترفع به النفس وتخيل إلى فاعلها أن أحداً لا يستطيع أن يفعل فعلك فيصير ذلك تكبراً من حيث ظن أنه تواضع، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

كريم له نفسان نفس عظيمـة   تنزهه عن كل أمر يشينه

ونفس لها عن ساحة الكبر مصرف   فيظهر منه للأخلاء لينه

فكما ينبغى للإنسان المتعزز أن يجانب الكبر كذا ينبغى له إذا هو متواضع أن لا يفرط فى التواضع فيخرج إلى حد الضعة والمهانة فليراع الإنسان ذلك ولا يهمله.

وكذا قد يشتبه العجب بالفرح، فالعجب للنفس وهو ردىء مذموم، لأن المعجب ينقطع نظره عن رؤية النعم من المنعم بها تعالى فيتوهمها من نفسه، والفرح أن يراها العبد من الله تعالى فيفرح بها ويحمده عليها ويعترف لربه بما منحه قال الله تعالى ﴿ قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون ﴾[1].

---

(١) يونس: ٥٨.

التواضع والتكبر مرجعهما للقلب

لتواضع والتكبر مرجعهما إلى القلب وليس لهما تعلق بالزيّ، وما يتكلفه الإنسان من الأفعال الظاهرة فإن ذلك قد يكون تصنعاً، فكم من إنسان فقير يظهر التواضع والانكسار ونفسه من أنفس الجبابرة المتكبرين، وكم من إنسان له هيئة وأهبة وهو من المتواضعين ترى عنده انكساراً وخضوعاً، فإذا ليس الاعتماد فى الكبر والتواضع إلا على ما تجنه[1] القلوب فلا تعتدّن بالظواهر، وحدّ الكبر هو ما قال بعضهم: الكبر هو استعظام النفس وأن ينظر الإنسان إلى غيره بعين الاحتقار، وعلامته فى الإنسان أن يقول: أنا وأنا، وهو خصومة مع الله تعالى، إذ الكبرياء رداؤه والعظمة إزاره، والكبر هو الذنب الذى لا تنفع معه طاعة،و هو خلق من أخلاق القلب، فالمتكبر ينظر إلى الناس نظره إلى البهائم، ومثل المتكبر مثل غلام لبس قلنسوة الملك وجلس على سريره: فانظر كيف فعل فعلاً يستحق به ضرب عنقه:

شرائط العلم وآدابه

يا من شأنه طلب العلم ومكاثرة أهله. اعلم أن للعلم جلالة وبهاء إذا روعيت شرائطه وإلا فتذهب بهجته ورونقه وتزول هيبة أهله من الصدور، لأن من الناس من يكون عالم اللسان وجاهل القلب.

فكن أيها الأخ حسن الطلب للعلم فحافظ على شرائطه وآدابه تجد حلاوته وتستضئ بنوره وتستثمر جناه فى الدنيا قبل الآخرة ولا تكن طريقك فى العلم القيل والقال وتبكيت المحاذى وتلمح عثراته فإن هذا شأن المرذولين وحاصل من لا همة له لأن العلم الذى خوطب العباد به رحمة

(١) تجنه: تستره.

وراحة، فإذا نحي به الخصام والمغالبة صار عذاباً وتعباً، فاقتد في علومك بطريق السلف الماضين الذين قالوا : إذا أعجبك الكلام فاسكت وإذا أعجبك السكوت فتكلم، فقد ورد «أن للعلم طغياناً كطغيان المال» فاحذر العجب في الكلام فإنه رذيلة تمقتك عند العقلاء، وينبغي لك أن يكون عليك الوقار والسكينة، والسمت الحسن في أنحائك ومقاصدك. واعلم أن العلم يورث العالي انكساراً والدنيء ترفعاً، فكم جاهل قد غلب عالماً فقهره، واستظهر عليه تمويها ويكون من ذلك العالم توقراً وحياء، ومن الجاهل رعونة وبذاءة :

فواعجبا كم يدعي الفضل ناقص ... ووا أسفا كم يظهر النقص فاضل

إذا وصف الطائي بالبخل مادر ... وعيرّ قُسَّا بالفهاهة باقل

وقال السها للشمس أنت خفية ... وقال الدجى للصبح لونك حايل

وفاخرت الأرض السماء سفاهة ... وحاولت الشهب الحصى والجنادل

فيا موت زر إن الحياة ذميمة ... ويا نفس جدّى إن دهرك هازل

ولما رأيت الجهل في الناس فاشياً ... تجاهلت حتى ظن أني جاهل

ومنه قول الآخر :

ولربما خزن اللبيب لسانه ... حذر الجواب وإنه لمفوّه

ولربما نطق الغبي فنافست ... فيه العيون وإنه لمموّه

قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : تعلموا العلم، وتعلموا للعلم الوقار والحلم، وتواضعوا لمن تعلمونهم وليتواضع لكم من تعلمونه ،ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم مع جهلكم. وقال سيدنا عليّ بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه : تعلموا العلم تعرفوا به

واعملوا به تكونوا من أهله فإنه سيأتى من بعدكم زمان تذكر فيه أعشارهم وأنه لا ينجو منه إلا كل نومه منبتة الداء، أولئك أئمة الهدى ومصابيح العلم ليس بالمفتاح العجل المذابيع البذل أولئك يفتح الله لهم أبواب رحمته ويكشف عنهم ضراء نقمته. ونهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «عن الأغلوطات» قال العلماء: هى المسائل الدقاق الصعبة. وفى الحديث «شرار أمتى الذين يتبعون الأغلوطات ليعموا بها عباد الله».

كيفية معرفة العبد منزلته عند مولاه

إذا أردت أن تعرف منزلتك عند الله تعالى فاعتبر ذلك بمنزلته عندك وانظر إلى شدّة تعلق سرّك به واهتمامك بمراضيه وكرهك لما يكره وموالاتك لأصحابه ومجانبتك لشرار خلقه، ابن الأمر على هذا فهو الأصل المعتبر، ولا تبن الأمر منك ولا من غيرك على الأعمال الظاهرة إذ لا اعتبار بذلك فإنها قد تكون فى الأبرار والفجار كما تقدّم.

من أسرار كلمة التوحيد

اعلم أن القاعدة العظمى التى هى ركن الإسلام ودعامة الإيمان كلمة «لا إله إلا الله»، إلا أنك أيها الأخ السالك ينبغى لك أن تكون بمعناها متحلياً وبحقيقتها متصفاً، لأن هذه كلمة عظيمة ولها التأثير العظيم إذا تنبه لسرّها ،لأن لها حالتى عموم وخصوص.

فحظ أهل العموم توحيد الربّ تعالى عن المشاركة فى ربوبيته.

وأما أهل الخصوص العارفون بأسرار الأشياء فإنهم يجعلون «لا إله إلا الله» نصب أعينهم فى أمورهم جملة فكراً وذكراً ويعملون على معناها وحقيقتها لأن العبد إذا وفق لفهم هذه الكلمة العظيمة حصل على توحيد خاص

وصـارت له هذه الكلمـة جنة يتـقى بهـا المخاوف والمكاره لأن الإيمان بهـا إذا خالط بشاشـة القلب لم يبق للعبـد تطلع فى سرّائه وضرائه إلا إلى ربه تعالى فيصـح له منها مقام التوكل لأنه إذا اتضح له العلم بأن أمور هذا العالم منوطة بإذن الله تعالى وإمضائه ألجأته الضرورة إلى التفويض إليـه والتسليم لأمره تعالى فيستريح العبـد إذ ذاك من اضطراب الآراء وترديد الخواطر بتفويض أموره إليـه سبحـانه وتعالى، فرجال الحق تعالى لا يعلقون قلوبهم بالكلية بأحد من الخلق ويرون ذلك من الشرك الخفيّ فإن اضطر الإنسان فى معيشته إلى سلطان أو رئيس فليـجمل فى الطلب إليـه ولا يكن قلبه معتمداً عليه بالكلية فيوكل العبد إليه ويسقط العبد إذ ذاك من عين الله عز وجل.

فـينبغى أن يكون محل الله تعالى من القلب محلاً خاصاً لا يحله أحد من الخلق، ثم بعد ذلك ينزل العبـد المخلوقـين من باطنه منازلهم، فـمتى حـصل للإنسـان شىء من يقين التوحـيـد استراح وكفى مؤناً كثيـرة، وما أحسن ما قيل: «من عرف الله تعالى عاش، ومن طلب الدنيا طاش، والمؤمن على دينه فتـاش، والجاهل يغدو ويروح فى لاش»، فإذا تنفعل الأشيـاء لصـاحب هذا القلب الذى قد حصل فيه يقين التوحيد لقوّة إيمانه بهذه الكلمة العظيمة.

روى أن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام قال: إن العبـد إذا أخلص لله تعالى ثم قال لهذا الجبل زل زال. قال فتحرك الجبل يريد أن يزول فقال له عيسى اسكن إنما ضربتك مثلاً، وهذا المعنى هو سرّ الاسم الأعظم لأن القلب إذا خضع لجلال الربوبيـة لما قد حصل فيـه من يقين التوحيد امتلأ هيبة وخشوعاً لما يشاهد من الأنوار الإلهية.

ولهذا المعنى قال الذى عنده علم من الكتـاب: ياذا الجلال والإكـرام، فحرّك عرش بلقيس من أرض اليمن فخرج إلى أرض المقدس فى الحال، وهذا

من القدرة الباهرة ، فتأثير هذه الكلمة العزيزة ، إنما هو بحسن محلها وهو القلب ، فالقائلون لهذه كثير ولكن السرّ في تعلق الكلمة بأسرار قائلها ، ففي ذلك يقع التباين والتفاوت ، فإذا أردت أن تعرف ذلك حقيقة فانظر إلى قول إبراهيم الخليل صلوات الله تعالى وسلامه عليه في النار : حسبي الله ونعم الوكيل ، فصارت النار عليه برداً وسلاماً ، فكم من يقول هذه الكلمة ولكن ما يحسن أن يقولها كما قالها الخليل عليه الصلاة والسلام : دليل ذلك أن جبريل عليه الصلاة والسلام اعترض له وهو في الهوى وهو مارّ إلى النار ، فقال يا خليل الرحمن ألك حاجة ، فقال أما إليك فلا ، فقال جبريل فسل من لك إليه حاجة ، فقال الخليل : أحبّ الأمرين إليه أحبهما إليّ ، فانظر إلى هذا اليقين والتفويض والتسليم في هذا المقام الصعب . فهذا يبين لك أن بين الأحوال بوناً وتفاوتاً فاعلم .

سر الصلاة وروحها

اعلم أيها الأخ أن أهل العلم بالله تعالى شأنهم العمل على حقائق العبادات كما تقدّم لنا من القول ، وطريقهم الاهتمام بأسرار الطاعات ، وآدابهم في الصلاة مراعاة ظاهرها بالخشوع والوقار في الركوع والسجود ، ليعلم العبد أن صلاته كالهدية يتقرب بها إلى الرب تعالى فليحذر أن تكون عليه هينة فيكون على ربه هيناً أهون ، ثم ليكن باطنه أشدّ مراعاة ، ويعلم العبد يقيناً أنه بعين الله عز وجل مشاهداً باطنه كما يشاهد ظاهره ، فليتأدب بين يدي مولاه وليصرف كلية همه إليه تعالى . والأصل في هذه العبادة دوام اتصال القلب بالله تعالى وجمع الهمّ ، هذا هو سر الصلاة وروحها ، وبهذا المعنى تتفاوت أحوال الرجال المصلين .

ما يشين الصلاة

قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما : ركعتان تركعهما فى تفكر واعتبار واعتقاد خير من قيام ليلة والقلب ساه .

أما الذى ينقص الصلاة ويشينها فهو ما يرد على القلب من الخواطر الصارفة عن دوام الاتصال بالله تعالى ، وهى ثلاثة أشياء : خاطر وفكر وعزم.

فأما الخواطر فهى هذه التى تمر بالقلب ولا ثبات لها ، فإذا اجتمع على القلب منها عدّة خواطر صارت فكراً فإذا أجمع القلب وعزم على فعل شىء من ذلك صار عزماً ، والذى ينبغى للمصلى أن يعتمد فى صلاته مجاهدة هذه الأشياء بنفيها وصرفها عن قلبه لئلا تغير عليه دوام الاتصال ، فينبغى أن لا يزال ينفى الخواطر عن قلبه حتى لا تلبث فتصير فكراً ، ثم تصير عزماً فيخرج العبد بذلك عن حقيقة الصلاة . قال الحسن البصرى رحمة الله تعالى عليه : كل صلاة لا يحضر فيها القلب فهى إلى العقوبة أسرع ، فينبغى للعبد أن يتوجه بقلبه إلى الله تعالى كما يتوجه بوجهه إلى القبلة ، ليعلم العبد أن هذا حقيقة الصلاة ، فإذا أغفل العبد عن شىء من صلاته لم يحتسب له به لقوله صلى الله عليه وآله وسلم «ليس لك من صلاتك إلا ما عقلت»[١] وينبغى للعبد إذا فرغ من صلاته أن يسأل الله تعالى أمور دينه ودنياه ولا تكون الصلاة على العبد كالشىء المتكلف يسلم ثم ينهض ، فهذا يدل على استيلاء الغفلة على العبد ، بل يسكن بعد الصلاة بقدر ما يسبح الله - تعالى - ويحمده ويكبره ويدعو لنفسه خاشعاً خاضعاً متضرعاً ولوالديه وللمسلمين ، فإن ذلك من تمام الصلاة ، وليجتهد العبد أن يؤدى الفرائض لأوائل أوقاتها ، فإن ذلك مندوب إليه .

---

(١) أخرجه المنذرى فى الترغيب والترهيب .

من آداب أهل العلم فى الصوم

وأما الصوم فهو باب فى العبادة وهو أقوى أسباب الإعانة على الطاعات، فينبغى للعبد أن يراعى حدوده وآدابه فيمسك عن كل كلام لا حاجة إليه لاسيما الغيبة، وكل كلام يعظم وزره، وليكن ليوم صومه امتياز على يوم فطره، فليكن ذاكراً لله تعالى فيه إن أمكنه بلسانه وإلا فبقلبه، وإن أمكنه أن يعتكف فى المسجد لطاعة الله تعالى، وليصن الإنسان سره وذلك مندوب إليه يلزم الإنسان الذكر والطاعة سراً فى صومه عن الخطرات السيئة والأفكار الفاسدة، فإن ذلك أيضاً من تمام الصوم فكما ينبغى له أن يصون سره يحفظ لسانه عن الكلام السيئ. قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: صوم القلب خير من صوم الجوارح واللسان، وصوم اللسان خير من صوم الجوارح وجوع الباطن، وليأخذ الصائم من الطعام عند الإفطار قدراً متوسطاً ولا يتكثر من الألوان لأن حقيقة الصوم هو تنظيف البدن بالتقلل من الأكل ليتنور القلب، وليجتهد العبد فى تطييب طعمته: أعنى من الحلال فإن ذلك أصل عظيم.

من آداب الدعاء

«الدعاء مخ العبادة» فينبغى للعبد أن يكون عند الدعاء خاشعاً ذليلاً حاضر القلب، وليحذر أن يقف بين يدى الله تعالى بقلب ساهٍ لاهٍ، فإنه يتعرض بذلك لمقت مولاه، وأفضل الدعاء وقت السحر أو نصف الليل، وأقربه إلى الإجابة ما كان عند خشوع القلب حتى يقبل العبد بكليته على الله تعالى، وما أحسن وقفة العبد الذليل المسكين بين يدى الملك العظيم الرءوف الرحيم يده اليمنى على كوع اليسرى بالانكسار والخضوع والإخلاص:

لبست ثوب الرجا والناس قد رقدوا　　　وبت أشكو إلى مولاى ما أجد

فقلت يا أملى فى كل نائبة　　　ومن عليه لكشف الضر أعتمد

أشكو إليك أموراً أنت تعلمهـــــا	مالـــى على حملها صبر ولا جلد
وقد مـــددت يدى بالذل مبتهـــلاً	إليك يا خيــر من مدت إليــه يــد
فـــلا تردنـــها يا رب خائبـــــة	فبحر جودك يروى كـل من يــرد

من شروط إجابة الدعاء

ومن شـروط إجابة الدعـاء، أن يكون أكله الحلال، وأن يديم الدعاء فلا يقطعه، وإذا أراد العبد أن يدعو فى أمر مهمّ ذى بال فليقدم أمام دعائه صدقة حسنة يسترضى بها الرب سبحانه وليجبر قلب فقير صالح مستور ويستر عياله وليهد إلى أهل بيت مساكين، فبذلك يتقرّب إلى الله تعالى وتقرب عليه إجابة دعائه، وليجتهد في إخفاء دعائه وإسراره، وليكثر من الدعاء على قدر نفاسة المطلوب، وليكثر الاستغاثة بالله عزّ وجل، وليسجد بمكارم وجهه على الأرض أو على تراب بدمعه وليتذلل للرب سبحانه وتعالى مهما استطاع.

من الأسرار الغامضة للدعاء

واعلم أيها الأخ أن للدعاء أسراراً غامضة ، وهو أن يرتفع إلى الله تعالى من قلب حاضر خاضع مكسور بصحة قصد، ولا ينبغى أن يكون الدعاء من قلب غافل قاس، فإن ذلك ينافى حقيقة الدعاء، والدعاء الخالص الذى ليس له تعلق بغير الله تعالى.

هذا سر أهل الفهم عن الله عز وجل فى أدعيتهم. وأما أهل الغفلة ومن لا قلب له فليست هذه الأسرار من شغلهم إنما شأن هؤلاء الأسجاع والقرائن والتزين عند الحاضرين بحسن الصوت وذرابة اللسان، وهذا شيء لا يلتفت إليه أصحاب القلوب، لأن القلوب إذا اشتغلت بالأسجاع والقرائن غفلت عن سر الدعاء الذى هو إخلاصه ورفعه إلى الله تعالى بالخضوع والانكسار. قال الله تعالى عند ذكر الدعاء ﴿ إنه لا يحب المعتدين ﴾[1] أى الذين

(١) الأعراف : ٥٥ .

يظهرونه ويرفعون به أصواتهم ويتفاصحون فيه لأن سر الدعاء إخفاؤه. قال الله تعالى ﴿ إذ نادى ربه نداء خفياً ﴾[1] وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « يكون فى آخر الزمان أقوام يعتدون فى الطهور وفى الدعاء»[2] وقال ذو النون المصرى: ادع الله بلسان الفاقة ولا تدعه بلسان الحكمة . وأما الإلحاح فى الدعاء فمأمور به لأن ملازمة الدعاء وارتفاعه إلى الله تعالى بتصميم عزيمة وإكثار وإدامة مبالغة فذلك من علامة الإجابة.

واعلم أيها الأخ أن الدعاء عبادة حسنة يؤمن فيها الرياء والعجب وما يخاف على العبادات من الأمور المبطلة لها، إذ هى حالة تقيم العبد مقام محض العبودية ذلاً وخضوعاً واستكانة، فمن أجل ذلك رفعت هذه العبادة على كثير من العبادات، فمن أبطرته النعمة تمادى فى الهوى فأهمل الدعاء تغابياً وتغافلاً فقد استهدف للبلاء، قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « من لم يسأل الله يغضب عليه إن الله إذا لم يسأل غضب »[3] وقال عليه الصلاة والسلام «إن الله تعالى حييّ كريم يستحى من العبد إذا مدّ إليه يديه أن يردهما صفراً لا يضع فيهما خيراً»[4] فليكثر العبد من ذكر هذين الاسمين العظيمين: «يا حي يا قيوم ياذا الجلال والإكرام»، فقد ورد فيهما أحاديث صحاح، فافهم هذه الأسرار فقد كشفت لك عن الحقيقة فأريتك معالم الطريقة.

---

(١) مريم : ٣

(٢) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان بتقديم الدعاء على الطهور .

(٣) رواه الترمذى فى سننه

(٤) رواه الترمذى وأبو داود وأحمد والحاكم .

من أسرار الصدقات

نذكر زيادة إيضاح لما تقدم ذكره فى هذا المعنى.

اعلم أن للصدقات أسراراً عجيبة ولذوى الفهم عن الله تعالى فيها طريق حسن قد جربوها ووجدوا فيها نفعاً، قالوا : ما وجدنا شيئاً أقرب إلى رضا الله تعالى من إدخال السرور على قلوب هؤلاء الأخيار المنكسرين، فمن كانت له إلى الله تعالى حاجة فليصنع طعاماً طيباً مثل ما يصنعه لنفسه أو أطيب، ثم ليدع إليه هؤلاء، فإن للرب جل جلاله إليهم تطلعاً تاما فليسرهم وليكرمهم، فإن لذلك تأثيراً عظيماً، وقد جرّبه أهل المعرفة، ولهم عادة يعاملون الله تعالى بما يشابه الفداء فيفتدون رأساً برأس فيذبحون عن المريض رأس غنم ويصنعون طعاماً ثم يجمعون عليه هؤلاء الفقراء الأخيار أهل السر والصلاح أو يهدونه إليهم ثم يلتمسون منهم الدعاء للمريض، فإن لذلك تأثيراً عظيماً مجرباً، ولهم طريقة أخرى عالية يتعاطاها أهل الحق تعالى فى النوازل الصعبة والأمراض المخوفة، وهو أن يخرج الإنسان عن أعز ما يملك وأنفس ما عنده لله تعالى : مثاله أن الإنسان إذا مرض أو مرض من يعزّ عليه فليعمد إلى أعز ما يملك من فرس أو عبد أو جارية فيبيعه ويصرف ثمنه إلى الأخيار من الفقراء أهل العفاف والصيانة، فقلّ أن يفوته المطلوب.

من شرائط الصدقة وآدابها

هذا شيء قد جرّبه أهل الحق تعالى، وللصدقة شرائط وآداب. فمن شرائطها، أن تكون من وجه حلال، وأن يسرّ بها جهده، ولا يعاود ذكرها للفقير، ولا يذكرها لأحد لأن ذلك يؤذى قلب الفقير المستور، وإذا دعا له الفقير يدعو له كما دعا له حتى لا يذهب أجر الصدقة بدعائه فيبقى بلا

أجر، وليتصدق من أطيب ما يحضره إن كانت الصدقة طعاماً، فليحذر أن يعطى الفقير الردىء، وليجهد أن يحمل الصدقة بنفسه إلى باب الفقير وليتواضع له ولا يوصل الصدقة إلى الفقير على جهة الترفع والعلوّ، لأنه فى ذلك معامل الله تعالى فليحذر الترفع والتعزز فى الطاعات لأن ذلك مما ينافيها، بل ينبغى للعبد أن يخضع للرب تعالى حينئذٍ، لأن الرب جل جلاله يكون ناظراً إلى العبد، فليحذر من الكبر وليحسن أعماله جهده. قال العارفون: تحسين الأعمال أحب إلى الله تعالى من تكثير الأعمال.

واعلم أيها الأخ العارف: أن العارفين إنما نالوا المنزلة عند الله تعالى بتحسين الأعمال وحسن الفهم فى التقرّب بها، وهذا معنى قوله تعالى - «وأقرضوا الله قرضاً حسناً»[1]- أى حسنوا له أعمالكم.

تعهد الإنسان حال نفسه

وينبغى للعبد أن يراعى مروءته، فإن كان فى طباعه كرم فليزد منه وليحافظ عليه،وإن كان فى طباعة شح فليجاهد نفسه، وليتخلق بأخلاق ذوى المروءات وليتشبه بهم، فإن للمجاهدة تأثيراً بيناً فى الأخلاق، والمروءة طريقة حسنة يحبها الله تعالى وهى شعار الصالحين، فإن الله كريم يحب الكرم ويكره اللؤم ودناءة النفس، وقد قيل: فاجر سخى أحب إلى الله تعالى من قارئ لئيم، فليحذر العبد أن يتخلق بأخلاق اللئام، فيتعرّض بذلك لمقت الله ولا يزداد بأعماله من الله إلا بعداً، ولكن يجب عليك أن تميز أيها الأخ بين ما تعطيه لله تعالى وبين ما تعطيه مروءة فترجح جانب ما هو له على ما تفعله مروءة فقد عرفت بما تقدّم أن العمل الخاص هو الذى ليس فيه حظ بوجه ما وإن كانت المروءة حسنة.

---
(١) المزمل.

ذم الشح وكيفية معالجته

واعلم أن الشحّ تلازمه صفتان رديئتان يأتي ذكرهما، فينبغي للعبد أن يجانبه ويجاهد نفسه في تقليله وإزالته عنه بالكلية إن قدر، فإن للرياضة تأثيراً بيناً في الأخلاق ولولا إرادتنا أن يهتمّ الإنسان بإصلاح هذا الخلق الذميم وقمعه لما ألممنا بذكره، إذ حاصل الكلام في ذلك حينئذٍ راجع إلى المذمّة التي لا فائدة فيها، لكن قصدنا من ذكر ذلك لينبعث الإنسان على نفسه، ويجتهد في نفي هذا الخلق الرديء عنه، وإصلاح ما يمكن منه إن لم تمكن إزالته بالكلية، فنقول:

الشحيح يستعذب شح نفسه

قلّ أن يفوت الشحيح ضعف العقل وقسوة القلب. أما قسوة القلب فلا تكاد تنفك عمن استولى عليه هذا الخلق وأعرق فيه، وأما ضعف العقل فلأنا قد قرّرنا أن العقل هو حصة التميز وثمرته النظر في العواقب، فلو كان الشحيح المسكين ذا تمييز ونظر صحيح لما اختار لنفسه هذا الخلق الذميم، واحتمل ما يلحقه منه من المذام والملام والآثام وفوّت نفسه لذة المروءة والإهزاز للمكارم والفضيلة الجليلة دنيا وأخرى من إدخال السرور على ذوي الضرورات الأخيار المستورين، وما يجد الإنسان في ذلك من الابتهاج بحسن الثناء عليه، فإن لذة ذلك مطبوعة في جبلة الإنسان، هذا مع ما فيه من الأجر العظيم وهو معلوم، فهذا الشحيح المسكين في بلاء من نفسه ومن الناس، فيلتزم في نفسه بمراعاة هذه الخلة الرديئة مذمة الناس وتعنيفهم فيقيم لنفسه الأعذار الباطلة ويطلب التأويلات المستبعدة ويغالط نفسه مغالطة، ويعلم المسكين في نفسه بسوء حاله، لكن يلتزم قبح ما يأتيه اضطراراً لكون هذا الخلق الرديء قد أخمد نفسه واستولى على عقله، وربما ساءته حاله

وخزى فى نفسه وحزن على نفسه فى أوقات الصحو، ثم يعود الطبع الردىء عليه فيقهره ويعجز عن مداراته لغلبة الهوى عليه، فالشح ردىء مذموم، لكنه ينزع إلى أصل هوى أردأ منه وأضرّ عند الله تعالى، وهو أن الشحيح يستعذب الشح مع ما يلزمه من الإضرار بدينه ومروءته لحالة تتشبث بها النفس وتكلف بها عند الحصول إلى المال علوّاً وتجبراً وبذخاً على ضعفاء الناس، لأن شأن النفس تطلب العلوم، فهذا صاحب المال تعلو نفسه ويعتريها نوع خيلاء يعز على النفس ترك ذلك والنزول عنه فلا يقدر على قهر النفس وردعها عن هذا الخلق، هذا الذى تستلزمه النفس إلا أنفس أقوياء الزهاد الذين عصمهم الله تعالى وبصرهم مواقع رشدهم، وهذا المعنى هو الذى يشفق منه أصحاب الحق ،ويحذرون من الوقوع فيه فيختارون الفقر والتقلل من الدنيا حتى لا يقعوا فى هذه الحالة المخوفة، وهو التجبر بالمال وتوهم الارتفاع على الناس فتنحط منزلته عند الله تعالى وتنصرف قلوبهم من تعلقها بربهم عند فقرهم وفاقتهم ويصير اعتمادهم على ما عندهم من المال، فخواص الحق - تعالى - يحذرون من ذلك وبعضهم لا يبيت على معلوم حفظاً لقلوبهم عن التغيير وخوفاً من فتنة المال ؛ لأن المال ؛ يكسب النفس طغياناً ويعترى ضعفة العقول منه حالة تشبه الجنون نهما على الدنيا وكدحاً لا يقرّ صاحبه، ويلزم من الشح أيضاً سوء الظن بالله تعالى، لأنه لا يثق بربه أنه إذا أخرج شيئاً أن يعوضه الله تعالى عنه ، بل تسوّل له نفسه الخبيثة أنه إذا أخرج شيئاً ذهب منه ، فليس لهذا الشحيح المسكين ساعة أنس ليصفو قلبه مع ربه، باطنه أبداً خراب لا يزال نافراً مستوحشاً سيئ الظن بالناس، فلا يزال متنكراً للإخوان، من لقيه نفر منه، يقول عساه يطلب منى شيئاً فلا يزال حذراً خائفاً، باطنه مظلم، وقلبه خراب، نعوذ

بالله تعالى من هذه الحالة الرديئة، وقد يكون صاحب الشح شيخاً كبيراً قد أفنى عمره وعنده أموال طائلة لو عاش سنين كثيرة لكفاه اليسير منها، ثم تراه مع ذلك كالولهان فى طلب الدنيا على أقبح وجه جمعاً ومنعاً، وربما دخل فى المحارم والشبهات، فأين العقل من هذا، وهل هذا التخليط وسوء الرأى إلا من نقص العقل وفساد التصور ؟ وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى :

فإن تكن الدنيا تعدّ نفيسة ... فدار ثواب الله أغلى وأنبل

وإن تكن الأموال للترك جمعها ... فما بال متروك به المرء يبخل

وإن تكن الأرزاق قسماً مقدراً ... فقلة حرص المرء فى الرزق أجمل

وإن تكن الأبدان للموت أنشئت ... فقتل امرئ فى الله بالسيف أفضل

فهذا الذى أردنا تبيينه والتحذير منه.

كيفية معالجة الشح

أما الطريق إلى إصلاح هذا الخلق فمجاهدة النفس بالبذل والتشبه بذوى المروءات ومكاثرتهم وإشعار النفس حسن طرائقهم واستذكار ما فى المروءات من المحاسن فى الدنيا، والأجر الجزيل فى الآخرة، ثم ليكثر الإنسان إحضار الشح بذهنه ويستذكر ما فيه من القبائح والمذامّ وتعنيف الناس له ومنقصتهم به، ثم ليقف على ما ورد فى ذم الشحيح من الأمور المخوفة، من ذلك قوله تعالى ﴿ ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون ﴾ [1].

وكذا ورد «أن الرب سبحانه وتعالى أنزل على داود عليه السلام فى الزبور : ينبغى للعقلاء الفقهاء الذين إذا رأوا نعمى متجددة لديهم، وقد أمسكت أكفهم عن الإنفاق والانبساط فيها أن يكثروا النوح على أنفسهم

(١) الحشر : ٩

ويخافوا أن أجعل نعمى عليهم استدراجاً، وإذا عزم الإنسان على صلاح نفسه وقدر على محاسبتها وتلمح عيوبها رجوت له أن ينصلح ويقارب، وإهمال الإنسان نفسه وتركها على سيئ أخلاقه موقع له في المكارة والبليات».

الفرق بين اللؤم والشح

واعلم أن اللؤم أسوأ حالاً لأن الشحيح هو الذى يصعب عليه البذل، وقد لا يكون فى طباعه خبث وكراهية لخير يصل إلى أحد، وربما سرّ بخير ينال غيره إذا لم يكن من جهته، فإذا الشحيح قد يكون فى جبلته نوع خير، وأما اللئيم فإنه مع شحه يكون كارهاً للخيرات أن تصل إلى أحد، وربما يفرط هذا الخلق الخبيث إلى حدّ لو قدر أن يمنعه لفعل، وإن لم يكن له فى ذلك نفع لما قد غلب على هذا الإنسان المسكين من الطباع الشيطانية المهلكة، وينشد فى هذا المعنى:

يارب إن لئامَ الناس قد كثُرُوا ... فاستأصلِ القومَ حتى يظهرَ الكرمُ

أوسِمْهُمُ بسمات يُعرفُونَ بها ... كما تُوسَمُ فى آذانها النَّعَمُ

وينبغى للعبد إذ كان موسراً أن يواسى فى الشدة، وأن يكون بذولاً لطعامه إذا زاره إخوانه فليقدّم لهم ما تيسر من غير كلفة، فإذا رأى ذا ضرورة فلا يتخلف عن مساعدته، وإذا طبخ فى بيته طعاماً فليذكر جيرانه المستضعفين، وليحذر أن يشم منه فقير رائحة طعام ولا يطعمه منه، فإن ذلك أمر مخوف لا ينبغى أن يغفل عنه.

وكذا ينبغي للعبد أن يرى نفسه فقيراً بعين الحقيقة فيرضى بالدون من المجالس وأن يحمل حاجته بنفسه، وإذا رأى فقيراً عاجزاً عن حمل شيء ساعده على الحمل، فإن ذلك لا ينقص منه شيئاً ، وهذه طريقة الأخيار الذين ساعدهم التوفيق ونظروا بعين التحقيق، فليحذر العبد أن يكون نظره إلى الرياسة والترفع على الناس، وكذا ليحذر العبد أن يكون قصد بشيء من أعماله أن يذكر أو يعرف به فإنها حالة رديئة، لأن العبد حينئذٍ تكون أعماله لنفسه، لا لله تعالى، وليحذر العبد هذا فإنه عين الرياء وليبتغ وجه الله تعالى في جميع أحواله وليكثر تلمح أحوال قلبه وليعلم أنه مناقش على النقير والقطمير[1] بين يدى حكم عدل لا يظلم مثقال ذرة، وكذلك ينبغي للعبد أن يراعى سمته وهيئته في مشيته ومحاورته وسائر أحواله ليكون عليه الوقار والسكينة، وليكن رحيماً حمولاً مدارياً هشاً بشاً ، فإن ذلك شعار الصالحين ، قال سيدنا عليّ رضى الله تعالى عنه: البشاشة حبالة المودة، والاحتمال قبر العيوب، وما أحسن ما قيل في مراعاة السمت ، والهيئة والوصية بالتواضع:

ولا تمش فوق الأرض إلا تواضعاً ... فكم تحتها قوم هُمُ منك أرفع

وإن كنت ذا طول وعز ومنعـــة ... فكم تحتها قوم هم منك أمنع

[1] أى الشيء الهين الحقير

على السالك أن يدّرب على الصبر وأن يحسن معاملة العدو

وينبغي للعبد أن يدّرب نفسه على الصبر على أذى الناس فقلّ أن يفوته وليكن حليماً صفوحاً وليحذر أن يجازى مسيئاً بإساءته فيذهب أجره وتفوته فضيلة الإحسان ، قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه : من أعطى من حرمه ووصل من قطعه وعفا عمن ظلمه كان له من الله تعالى الظهير والنصير .

فإن كان للإنسان عدوّ فطريق ذوى العزم أن يبدأه بالسلام وأن يحسن إليه لتزول سخيمته[1] ، فإن صلح وإلا أهدوا له شيئاً ، فإن أردت أيها الأخ طريقة العقلاء الأخيار فعليك بقول الشاعر :

وإذا الجهول طمت به غلواؤه ۞ فاجعل له الحلم الرصين لجاما

وليحذر العبد من إضمار السوء لعدّوه وليطهر قلبه من الغل والحقد فإن ذلك شأن أبناء الدنيا المقهورين بأهوائهم ، وهى طريقة رديئة متعبة فى الدين والدنيا تتعب العبد وتفتح عليه أبواب الشرور وتلزمه أموراً يعجز عنها ، فإن قدر العبد أن يضبط نفسه بحيث يتأدب بما تقدّم فى هذا الكتاب ، فقد استراح وكفى مؤناً عظيمة فلا يغفل العبد عن التأدب بهذه الآداب الجليلة ، فإن لمشاراة الناس مؤنة ثقيلة يدفعها الإنسان عن نفسه بأيسر شىء إن ساعده التوفيق وكان ممن يحسن ذلك ، وهو أن يفكر الإنسان ويحضر ذهنه أنه إذا بلغ مراده من خصمه وغلبه ما الحاصل له من ذلك ، وهل لذلك جدوى سوى الانقياد إلى رعونة النفس الأمارة بالسوء ، ويبلغها هواها الذى لا

---

(١) السخيمة : الحقد والضغينة يقال : سللت سخيمته باللطف والترضى .

حاصل له. هذا مع ما يلزم الإنسان في بلوغ هواه من احتلال اللائمة للناس وترك المأمور به من فضيلة التحلم، ويستسهل التغرير بالنفس والعرض، لأنه ربما كان في ذلك خطر فإن إثارة الشرور ليست بسهلة. فإذا فكر العاقل في صعوبة هذه الأمور التي تهون على الجاهل ولو رأى أن الحاصل فيها لا شيء لم يعدل عن الاحتمال والمداراة وإماتة الشرور والأحقاد. قال سيدنا علي رضي الله تعالى عنه الحلم: فدام[1] السفيه، والاحتمال شأن الأبطال وبه تتبين قيم الرجال، ألا ترى إلى قول الشاعر:

لقد أسمع القول الذي كاد كلما ... تذكرنيه النفس قلبي يصدع

فأبدي لمن أبداه مني بشاشة ... كأني مسرور بما منه أسمع

وما ذاك من عجب به غير أنني ... أرى أن ترك الشر للشر أقطع

أيها السالك إذا غضبت فتذكر غضب الجبار

أما الغضب فإنه باب عظيم من أبواب الإثم. قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا غضب العبد أشفى على نار جهنم» فينبغي للعبد أن يجاهد نفسه ساعة الغضب فإنها ساعة بلوى، وليحفظ يده ولسانه، وليكظم الغيظ جهده فإنها حالة محنة يبتلي الله تعالى فيها العبد، فإن نظر إليه نظر رحمة خلص منها، وإن خذله ورفع عنه عنايته خسر خسراناً مبيناً، فليصبر العبد، وليحضر بذهنه قدر نفسه بالحقيقة، وليتذكر أنه صائر إلى مولاه تعالى واقف في موقف صعب لا يخلصه منه إلا ما قدم من الخيرات، فربما سكن

(١) الفدام: ما يوضع على الفم سداداً له يعني: أن الحلم يستر حمق السفيه وعيوبه.

ذلك غضبه. قال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: الحلم عند الغضب يؤمنك عند غضب الجبار، وليتحفظ العبد أن يقول أو يفعل فى غضبه شيئاً يندم عليه ويوقعه فى سخط الله تعالى، وإذا كنت ذا سلطان فتثبت ولا تعجل بالانتقام من عدوّ، فإن يد الله فوق يدك وسلطانه قاهر لسلطانك، وقد أمرك بالحلم والاحتمال، ألا ترى إلى قوله تعالى ﴿ ادفع بالتى هى أحسن ﴾ [1] فاحذر التجبر عند القدرة، والصولة عند التمكن، فإن التجبر لله الواحد القهار، فمن نازعه فيه قصمه، وقال سيدنا على رضى الله تعالى عنه: جد على عدوك بالفضل، فإنه أحسن الظفرين، فمتى زجر الإنسان نفسه عن غلوائها انتكفت وسكنت ومتى أرخى لها الرسن طمعت وطمحت إلى ما ليس لها من صفات الربوبية كما قيل:

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا تردّ إلى قليل تقنع

وقال آخر:

وكانت على الأيام روحى عزيزة ... فلما رأت عزمى على الذل ذلت

وجاشت علىّ النفس أول مرة ... وقرت على مكروهها فاستمرت

وما النفس إلا حيث يجعلها الفتى ... فإن أطمعت تاقت والا تسلت

روى أن الرب سبحانه وتعالى قال فى بعض الكتب: يا بُنىّ آدم اذكرنى إذا غضبت أذكرك إذا غضبت فلا أمحقك فيمن أمحق، وإذا ظلمت فارض بنصرتى فإن نصرتى لك خير من نصرتك لنفسك، وكذا روى فى المعنى من كلام أنزله الله تعالى فى بعض الكتب السالفة، وهو: من عمل بغير مشورة فذلك باطل بيقين، ومن لم ينتصر من ظالمه بيد ولا حقد ولا لسان فذاك علمه يقين، ومن استغفر لظالمه فقد هزم الشيطان، فإنها ساعة يتمكن فيها الشيطان من العبد يبتغى زلته وغوايته فليتنبه لها.

---

(١) فصلت: ٣٤

أيها السالك تنبه إلى كل ما يصدر منك

ومما ينبغى لك أيها الأخ أن تستيقظ لما يصدر عنك من الأحوال التى يجب عليك مراعاتها، اجتنب العهود والوعود والأيمان، وكل ما يبقى الإنسان فى ربقة الوفاء به، فإن الشيطان موكل بنقض العهود، فإذا عاهدت عهداً أو وعدت وعداً فاجهد فى الوفاء به، لأن الله تعالى يقول ﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾[1] وعقب كلامك بالمشيئة، ولا يكثرنّ منطقك بالحلف كمثل لا والله وبلى والله.

وليكن منطقك منك على بال، فإن الكلام كالسهم يفرط فيؤثر الندم ويبقى العبد مرتهناً بزلله، ولا كمثل هذه الأشياء التى يقولها الناس على سبيل الإعجاب والتبجح كقول أحدهم، قط ما عرض لى المرض الفلانى أوقط ما احتجت إلى أحد أوقط ما أصابنى الشىء الفلانى، فما يبعد قائل هذه الأشياء من التغير والابتلاء فيوشك أن يصيبه ذلك مفاجأة وذلك كما قيل:

احفظ لسانك أن تقول فتبتلى ... إن البلاء موكل بالمنطق

فتحفظ من هذه الأشياء واحذر الوقوع فيها وجانب الغيبة فإنها خلق ذميم وإثمها عظيم وهى حالة صعبة تصنع بصاحبها عواقب السوء وتضيع منه ولا تحصل له فائدة، وما أحسن قول الشاعر فى هذا المعنى:

وأكرم نفسى عن جزاء بغيبة ... وكل اغتياب جهد من لا له جهد

---

(١) المائدة: ١

وكذا جانب النميمة، فإنها شأن المرذولين الذين يغرون بين الناس العداوة والبغضاء، وجانب الكذب فإنه حالة قبيحة، والكذب مجانب الإيمان كما جاء عنه عليه الصلاة والسلام في الحديث «الكذب مجانب الإيمان»[1] وقال سفيان الثورى رحمه الله تعالى : ما كذب كذاب قط إلا من هوان نفسه عليه ، وأحذر أن تعير أحداً ببلية ابتلاه الله تعالى بها فيرميك الله بمثلها، واحذر أن تزدرى أحداً من الناس أو أن تحكى عنه أو تضحك الناس عليه، فإن هذه كلها أخلاق اللئام، ولا مثل السخرية بالناس، وتحذر من الإفراط فى الضحك كيلا تذهب هيبتك ويعقبك الحزن،واحذر المبالغة فى الفرح كيلا يسرع إليك الغم، واحذر أن تكسر قلب أحد أو تخجله بين الناس أو أن تثير باطنه عليك، فإن كسر القلوب حالة صعبة مخوّفة ينبغى للإنسان أن يتقيها ويخاف عواقبها لاسيما من أصحاب النفوس العزيزة الذين أحوالهم مستورة، لأنه قد ورد فى الكتب المنزلة :

وارحم نفسك تكن من المرحومين، ولا تظهر خطأ إنسان ولا زلله بل استرعيبه وخلله، وإذا مشيت فلا تمش فى الأرض مرحاً ولا تتخايل، وجانب العجب فى أمورك كلها عبادة كان ذلك أو علماً أو كلاماً، فإن العجب حالة دنيئة تمقت صاحبها وتضعه عند الناس، وينبغى لك أيها الأخ أن تطهر قلبك من الحقد فإنه نتيجة الغضب وهو خلق صعب يؤدى إلى الإضرار والتهالك فى أذية الناس لغلبة الهوى على الناس، لأن الهوى ينشأ مع الغضب ويثبت مع الحقد لأن الحقد هو إضمار الأذى فى حالة التمكن وهو من ضعف الجبلة، والأقوياء وذوو العقول الراجحة تشرف نفوسهم عن الانتقام، وكذا لا يرون التشفى ويرون هذه الأخلاق من ضعف التحاير، وأصل هذا كله أن الإنسان

---

(١) أخرجه ابن عدى فى الكامل والسيوطى فى الدر المنثور .

إذا نظر بعين الحقيقة وكان التفاته وميله إلى الآخرة هانت عليه هذه الأمور التي تصعب على غفلة أبناء الدنيا، فما هو إلا أن يتصوب القلب إلى جهة فيصير غريباً عن الجهة الأخرى، كذا حال الدنيا والآخرة فاعلم.

وكذا ينبغي لك أيها الأخ أن تنزه نفسك عن الحسد، فهو صفة قبيحة تنشأ من لؤم الطباع، ليت شعرى إذا زالت نعمة غيره ماذا يجدى عليه، لو فطن الإنسان لقبائح هذه لأشفق من تعلقها به، وأرجو أن يكون للتنبيه عليها أثر، فإن الإنسان إذا عنى بإصلاح أخلاقه انقادت له أو قاربت، فعليك أيها الأخ بملازمة الخير إظهاراً وإضماراً، وجانب الشرور والأذى من كل جهة وطريق، فإن عاقبة ذلك مخوفة.

واعلم أن الإنسان قد يبلغ من الخير غاية يقارب بها المَلَكَ ، ويتنازل به الحال فى سوء الأخلاق إلى أن يصير كالشيطان المريد ، نعوذ بالله تعالى من درك الشقاء ، ونسأله تعالى منازل السعداء بمنه وكرمه .

ابتلاء الأخيار بالفقر

اعلم أيها الأخ أن أكثر الأخيار مبتلون فى هذه الدار بالفقر والضائقة لم يزل هذا الحال عاماً فى أغلب أهل الخير فى قديم الدهر وحديثه، والسرّ فى ذلك أن الله تعالى اختار لخواصه العيشة الراضية فى الدار الأخروية، فقضى عليهم بالفقر ورقة الحال هنا لتتوفر حظوظهم هناك. وأما اجتماع الدنيا والآخرة للإنسان فهذا قليل جداً لا يكاد يقع إلا نادراً فى أقوام يقلّ عددهم، قيل: أوحى الله تعالى إلى الدنيا فقال:

يا دنيا احلولوى لأعدائى حتى لا يحبوا لقائى، وتمرمرى لأوليائى حتى لا يسكنوا إليك فتفتنيهم.

أقسام البلاء ودرجاته

فالابتلاء عام شامل للخليقة، قل أن يخلو أحد منه، ولكنه مراتب.

فتارة تكون البلوى في الدين ،وهذا أصعب الأقسام من البلاء، أعاذنا الله وإياكم من ذلك معاشر الإخوان.

وتارة تكون البلوى في العقل، وهذا أيضاً ردىء.

قريب من البلوى في الدين، لأن البلوى إذا حلت بالعقل تخبط الإنسان وساء خلقه وكثر غلطه في تدينه وفسدت عليه حاله في دينه ودنياه.

وتارة تكون البلوى في النفس فيتولد من ذلك الشح والدخول في المعاصي والتهالك في حب الدنيا، وهذا أيضاً ردىء.

وتارة تكون البلوى في حال الإنسان في أمور دنياه وهذا أقرب أحوال البلوى، وذلك قسم الأخيار أكثر ما يبتلون في أمور دنياهم، وأهل البعد عن الله تعالى أكثر ما يبتلون في أديانهم، فأبناء الدنيا المساكين يكون أحدهم مبتلى في دينه وهالكاً مع ربه، ومع ذلك هو فرح ومرح لغفلته عما يراد منه، ولو اطلع المسكين على ما يئول إليه حاله لبكى على نفسه.

فينبغي لكم معاشر الإخوان أن ترضوا بما قسم لكم من شعث الأحوال وتعذر المراد، فهذا شأن أصحاب الحق تعالى فلا تتبرموا بضيقة أحوالكم واصبروا، فقد قيل: من كره البلية في دنياه انقلبت إلى دينه ،وروى عن بعض الصالحين أنه قال: ما أردت من الدنيا شيئاً قط فتهيأ لى حتى لقد ركبت مرة حماراً فجهدت به أن يمشى تحتى فلم يمش فنزلت عنه: فركبه غيرى فمشى تحته فساءنى ذلك، فأتيت في منامى فقيل لى: لا يسؤك ما زوينا عنك من دنياك. إنما يفعل ذلك بأحبابه وأصفيائه وأهل طاعته، قال: فسرّنى ذلك وسرّى عنى.

وروى أن موسى عليه السلام قال : يا رب جعلت رزقى هكذا على أيدى بنى إسرائيل يغدينى هذا ويعشينى هذا، فقال له الرب تعالى : هكذا أصنع بأوليائى أجرى أرزاقهم على أيدى البطالين من خلقى ليؤجروا فيهم، فاحذر أيها الأخ أن تقنط من إبطاء الرزق، ولكن تلق حكم ربك بسعة صدر وحسن صبر.

واعلم أنك بعين الله تعالى يعلم من حالك مالا تعلمه أنت، فإن لربك فى ضائقتك وفقرك حكماً وأسراراً فلا يطلع عليها أحد لا أنت ولا غيرك، هذا مع كرمه وعلمه بحالك وهوان الدنيا عليه، ولكن كما أنه كريم فكذا هو حكيم فلا يناقض كرمه وحكمته. سئل الكتانى لم حرم الفقراء رفد الأغنياء؟ فقال لأمور ثلاثة :

- أحدها خبث الأموال.
- والثانى قلة توفيق الأغنياء،.
- والثالث أن الفقراء مرادون بالبلية.

فاحذر أيها الأخ أن تكون بكليتك معتمداً على مخلوق مثلك فى طلبك رزقك فيكلك ربك إليه، ولكن راع قلبك وكن بكليتك مع ربك فهو الذى سخر لك خلقه إذا أحسنت معاملته، ولأصحاب الحق جل جلاله فى هذا الباب سر لطيف من قوى على فعله فليقتد بهم، وهو أن القوم إذا ضاقوا لعاملوا الله بصدقة، فيكون قدرة أحدهم درهمين مثلاً فيعامل الله تعالى منها بدرهم على قدر قوّة حاله وحسن يقينه ، ولكن السر فى صحة المعاملة، فإذا حسنت نية العبد وخلصت من الشوائب المفسدة للأعمال، ووجد فى نفسه طمأنينة، فإن العوض لا يكاد يتأخر عنه، إنما يخاف أن يبطل ذلك اضطراب القلب، والإساءة فى المعاملة بالتفريط فى شرائطها بأن تكون من شبهة أو تصرف الصدقة إلى غير مستحق، أو من ليس بخير أو من لم يراع الإحسان

فى الصدقة كمن تصدق ومنّ على الفقير أو كسر قلبه بأن أظهرها، فإن المطلوب إذاً قد لا يحصل، هذا شيء قد جرّبه أرباب المعاملة فافهمه، واعمل عليه تصب بعون الله ومشيئته، فإذا أردت التقرّب إلى الله تعالى بإطعام الطعام فلتكن مواصلتك للفقراء الأخيار أرباب الصيانة والتعفف الذين تتعذر عليهم الأقوات، وقد قعدت بهم الحدود من هؤلاء أرباب العائلات المستضعفة من النساء الأرامل والأيتام المحاويج، فلا تضع طعامك فى هؤلاء الفرّاغ البطالين الذين اتخذوا دوران البلاد حرفة فلا تظهر عليهم آثار الخير يضيعون أوقاتهم فيما يذهب مروءتهم ويدنس أديانهم، فهم لا فى عمل دنيا ولا فى عمل آخرة.

كيفية وزن العبد لمقداره عند خالقه ومولاه

من أراد أن يعلم مقدار إيمانه فلا يعتبرنّ ذلك من نفسه ولا من غيره بالأعمال الظاهرة، فإن هذه الأعمال يعملها البر والفاجر. إنما الاعتبار بحقيقة الإيمان أموراً اختصها الله تعالى. الحب فى الله والبغض فى الله، والاستقامة هى طريق القوم وعليها معولهم، فإذا أردت أن تعلم مقدار استقامتك فى سلوكك فتلمح أحوال قلبك، فإذا وجدت قلبك مائلاً إلى الخير بالكلية ونافراً عن الشر جملة وكارهاً لأنواع الفساد فى الأرض فسلوكك مستقيم، وإن وجدت قلبك مقصراً عن كره شيء من الشرور الواقعة فى العالم ولو اليسير منها، ففيه بقية شائبة تلحقك بأصحاب الشرور وسبب ما فيك من ذلك التقصير، فعدل القلب هو الاستقامة، ولا

يتوقف الأمر أن يكون العبد ذا قدرة وملابساً للأشياء، بل بمجرد ما ينطوى عليه القلب ويكون ثابتاً فى نية الإنسان بحيث لو قدر فعله وأزال أنواع الفساد فى الأرض والشرور جملة، فهذه صفة حقيقة الاستقامة.

فاعلم إذا أردت أن تعتبر حال الإنسان فى إيمانه فانظر إلى مقاصده وخلطائه ولا يغرنك ما ترى من الإنسان من زىّ أو عبادة أو انعكاف الناس عليه، ولكن اعتبر حقيقة تقواه وخوفه من الله تعالى وصحة أمانته فى معاملته مع الناس، فذاك هو الأصل المعتبر، فمن رأيته يلزم حدود الشرع ويوالى أهل الخير وإن خملوا وكانوا مزهوداً فيهم فاقض له بصحة الإيمان، ومن رأيته يدعى الزهد وهو مع ذلك مفتون يوالى أهل الدنيا ويميل إلى الظلمة والمقدمين الأشرار ويميل مع من اشتهر وكثرت جموعه فإن ذلك مفتون، فاجتهد أن لا تدانيه ولا يغرنك ناموسه وشهرته، فإن ذلك قد يكون فى قوم أراذل لا خلاق لهم قد فتنهم ميل الجهال إليهم وكثرة من ينتمى إليهم من هؤلاء السفهاء الذين يضيعون أوقاتهم معهم فى البطالات والخرافات، وهؤلاء الذين يسمون قطاع الطريق على العباد. قال عيسى عليه السلام: لو بلغت أعمالكم عنان السماء وحب فى الله ليس وبغض فى الله ليس ما أغنى عنكم ذلك من الله من شىء، وقيل لبعض التابعين ألا تدخل على فلان الأمير؟ قال أخشى أن يدنى مجلسى فيوده قلبى فأحشر معه يوم القيامة لمحبتى له، وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم «أوحى الله تعالى إلى بعض الأنبياء أن قل لفلان العابد: أما زهدك فى الدنيا فراحة تعجلتها لنفسك، وأما انقطاعك إلىّ فتعززت بى فماذا فعلت فيما لى عليك؟ قال: يا رب وماذا علىّ؟ قال: هل واليت فىّ ولياً، هل عاديت فىّ عدوّاً؟»

أيها السالك اعلم أن أحب الخلق إلى الله تعالى أنفعهم للناس

واعلم أن أعمال البر من الصوم والصلاة ونحوهما يؤثر تأثيراً حسناً في القلوب اللينة الخيرة وأصحاب هذه القلوب ينبغي لهم أن يجعلوا هذه المعاملة طريقهم إلى الله تعالى، وقلّ ما تؤثر هذه الأعمال فى أصحاب القلوب المتكبرة القاسية، بل ربما أدتهم هذه الأعمال إلى التيه والعجب بأنفسهم ،فينبغي لأرباب هذه القلوب أن يداووا قلوبهم بالخيرات التي تكسر سورة النفس من مكاثرة ضعفاء الخلق، والتواضع لذوى المسكنة والمقاربة لهم في زيهم وأحوالهم، وكذا ينبغي لهم أن يبالغوا فى التواضع فيحملون الصدقات بأنفسهم إلى أبواب الفقراء والمحرومين المنكسرين، ويعودوا المرضى الخاملين، فإن ذلك يؤثر تأثيراً حسناً في الأنفس المستصعبة الشديدة ما لم يؤثر فيها الصوم والصلاة.

روى أن حبراً من أحبار بنى إسرائيل صنف ثلاثمائة وستين كتاباً حتى انتشر ذكره في الآفاق، فأوحى الله تعالى إلى نبيّ زمانه أن قل لهذا الحبر: ملأت الأرض نفاقاً لم ترد به وجهي ولا أردت بشيء منه رضائي، وعزتي وجلالي لا قبلت لك عملاً، فلما قال له النبى عليه الصلاة والسلام ذلك سقط في يديه ورمى تلك الكتب وأتى غاراً فى جبل فتعبد فيه برهة فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبي: أن اذهب إليه وقل له يقول لك الله : إنك لم تصب رضائي، فلما قال له النبي ذلك تحير، وقال ماذا أصنع! فألهمه الله تعالى أن ادخل الأسواق واخفض من نفسك ففعل وخفض من نفسه وساعد الضعيف وامْسَحْ على رأس اليتيم، فأوحى الله تعالى إلى ذلك النبى أن قل له : الآن أصبت رضائي.

وروى أنه كان فى بنى إسرائيل رجل خليع فاجتاز عابد من عباد بنى إسرائيل فى الطريق فاتبعه ذلك الخليع وقال : لعله أن تنزل عليه رحمة فتصيبنى معه. قال : فجعل الخليع يتبع العابد ، فالتفت إليه العابد وقال : مالى ولك ، أنا عابد بنى إسرائيل ، وأنت خليع بنى إسرائيل. اذهب عنى فذهب الخليع وقد انكسر قلبه ،قال : فأوحى الله تعالى إلى نبى ذلك الزمان أن قل لهذا الخليع : قد غفرت لك كل ذنب عملته بتواضعك لهذا العابد ، وقل لهذا العابد قد أحبطت كل حسنة عملتها بتجبرك على هذا الخليع ، قل لهما فليستأنفا العمل.

الفرق بين المحاسنة والنفاق

فى الفرق بين المحاسنة والنفاق : المحاسنة من الإنسان إلى الناس دليل عقله ، وهى طريق سليم يستدفع الإنسان بها الشرور ويتقى بها المكروه بأيسر مؤنة ، إذ لا ينبغى للإنسان أن يكاشف الناس ويثير شرورهم ، فهذا طريق صعب للإنسان مفسد على الإنسان حالتى دينه ودنياه ، فالمحاسنة طريقة حسنة مأمور بها لكن بقدر ، وبشرط أن لا يبالغ الإنسان فيها فيخرجه الأمر إلى حد النفاق ، قيل : أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : اعمل بعمل الأبرار وتبسم فى وجوه الفجار ، فالفاجر إذا لم يظهر فجوره فلا بأس بمحاسنته استدفاعاً لشره. أما إذا كان فجوره ظاهراً فليس لمحاسنته وجه فلا محاسنة ولا كرامة ؛ لأن الإنكار عليه يومئذٍ واجب ، وقد روى أن الرب تعالى قال لداود عليه السلام : خالص أوليائى مخالصة ، وخالق أهل الدنيا مخالقة ، وشأن أهل الفهم محاسنة الناس ولقاؤهم بالحسن ، يعاملون الناس بظواهر أحوالهم فلا يتجسسون عليهم ولا ينقمون على أحوالهم كما قال بعضهم :

إنا لنكشر فى وجوه أقوام، وإن قلوبنا لتلعنهم[١]، هذه هى المحاسنة المأمور بها. أما إذا كان الرجل يلقى الناس بالحسنى ويكيدهم فى الباطن ويضمر لهم السوء، فهذا نوع من النفاق.

لذات أصحاب القلوب
ولذات أصحاب النفوس

[**فصل**] اعلم أن لّذات أرباب القلوب غير لذات اصحاب النفوس؛ لأن لذات القلوب هى اللذّات بالحقيقة؛ لأن أرباب القلوب يرتاحون بالخيرات والأنسة بالبواطن والتنزه فى الأفكار الحسنة. فشأن أرباب القلوب طلب الأماكن الخالية وتلذذهم بها لاسيما الأماكن التى ينطق حالها برحيل ساكنيها عنها، فإن أصحاب القلوب يرتاحون بنحو هذه الأشياء التى تنفر عنها أصحاب لذّات النفوس، وبينهما بون بعيد فطريق أصحاب القلوب القناعة باليسير والارتياح بما تؤدى إليهم أذهانهم من العبر استئناساً ببواطنهم وتلذذاً برياض أفكارهم، ولا كذلك أصحاب لذّات النفوس، فإن لذّات أصحاب النفوس قد تكون صعبة متعبة كالتكثر من الأموال جمعاً ومنعاً، وكالتعب الشديد فى طلب الانتقام، والتشفى من الأعادى ومن الأضداد،واقتحام الآثام العظيمة من نيل الشهوات التى هى هينة مطرحة عند أرباب القلوب، فأرباب القلوب الذين غناهم فى قلوبهم، وإن كانت أيديهم صفراً من المال، وهذا شغل أصحاب الأنس على وحدتهم، وهم ذوى الاعتزاز مع قلة أنصارهم وهم يزجون أوقاتهم تزجية ويشكرون ربهم على قوت يوم فيوم ويرونه من أتمّ النعم؛ لأن جمع المال والتفاخر به حالة صعبة لا يكاد يسلم صاحبها حتى يشكر النعمة بالبذل ومساعدة ذوى الفاقة والمجانبة لشح

(١) لفظ حديث أورده البخارى معلقاً .

النفس المذموم صاحبه، وهذا قليل الوقوع فى ذوى المال لقلة التوفيق الغالب عليهم لاسيما فى وقتنا هذا، فإن الشح قد استولى على الأنفس. قال عيسى عليه السلام: بحق أقول لكم لدخول الجمل فى سم الخياط أيسر من دخول غنى الجنة من غير حساب، وروى أن الرب سبحانه وتعالى قال لموسى عليه السلام فى الخطاب: يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلاً فقل مرحباً بشعار الصالحين، وإذا رأيت الغنى مقبلاً فقل ذنب عجلت عقوبته، يا موسى لا تنسنى فإن عند نسيانى تكثر الذنوب فلا تفرح بكثرة المال، فإن كثرة المال تقسى القلب.

أيها السالك أتعب نفسك لتحصل لك لذة القلب

فاعلم أيها الأخ أن من كان قبلنا من أهل الأزمان الصالحة كانت قلوبهم طيبة لطيب أزمانهم بمشاهدتهم للفضلاء النبلاء وكثرة الصدق فى المقاصد والتنافس فى العمل بمحاسن السنن، فحيث انقضت تلك الأزمان المذهبة وذهبت أهلها عدمت الفضائل فعدم أهل الأزمان المتأخرة راحات القلوب من الالتذاذ بمكارم الأخلاق ومشاهدة أهل الصدق فاضطرهم الحال إلى تطلب الراحة بالأمور النفسانية الدنيئة المتعبة حيث تعذر عنهم ما كان لأهل الأزمان السالفة من الالتذاذ بالفضائل والمكارم، وقد تقدم لنا أن النفوس لا بدّ لها من شيء تشتغل به لكونها شبه النار فى الخلقة،.

فإن قدرت أيها الأخ السالك أن تتعب نفسك لتحصل لك لذة القلب فاجهد فإنه الملك الهنيء، فهذه لذة لا يعرفها أبناء الدنيا المبتلون بالجمع والمنع، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن

فلنحيينه حياة طيبة ﴾[1] فهذه الراحة كما ترى ثمرة حسن المعاملة، وهى القناعة وطيب القلب من غير مال، وبضد ذلك ترى العبد المعاقب بتفريطه فى جنب الله تعالى يكون ذا يسار وحالة صالحة وتراه لا يزال ضيق الصدر سيئ الأخلاق كثير الهموم.

قال الله تعالى ﴿ ومن أعرض عن ذكرى فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى ﴾[2] قال عكرمة :

يرزقه الله رزقاً حراماً ينكد عليه عيشته، فإن شأن الحرام أن يسيء الأخلاق ويخبث القلب ويضيق الصدر هذا شيء مجرب لاشك فيه، فترى أهل هذا القسم فى بلاء من نفوسهم، مكدودة أبدانهم، مشغولة قلوبهم بعيدة مطالبهم، وهذا تعب لا تدرك غايته، نعوذ بالله تعالى منه :

غنى النفس ما يكفيك من سدّخلة ... فإن زاد شيئاً صار ذاك الغنى فقراً

ومما نحن فيه لذّات أصحاب الشهوات الدنيئة كالملاهى، والمغالات فى الأمور الدنيوية كالملابس وزخرفة الدور وشبه ذلك من الأمور التى يحتقرها ذوو الهمم وأصحاب العقول، فيكون العبد مبتلى بتضييع ماله وعمره فى هذه الأشياء عقوبة له وسقوطاً لمنزلته عند الله تعالى، فافهم هذا واحذر الوقوع فيه وأدم مسألة ربك عز وجل يغشيك برحمته، فإنه قريب مجيب.

---

(١) النحل : ٩٧.

(٢) طه : ١٢٤.

أثر النفس فى قبول الشهوات وردها

وهذه الشهوات والملاذ إنما تستولى على الأنفس الضعيفة، وتعتاص[1] عنها الأنفس القوية لأن ذا العقل الرصين إذا رأى أهل اللذات إنما تحصل بذهاب شيء من دينه أو مروءته أو ماله وأن غنمها لا يفى بغرمها رغب عنها وربح الحرية وخلص من استعباد الشهوة له وكفى مؤناً كثيرة كانت تلزمه فى نيل تلك الشهوة المحتقرة عند ذوى الحصانة.

اعلم أن الأقوياء من الرجال لا يرون هذه الملاذّ المفرطة التى تخلب النفوس وإن قدروا عليها، وكانت ممكنة مباحة لأن اللذات المفرطة تحرّك نارية النفوس، ويصير للنفوس بها نوع غرام، ويصير صاحبها كالولهان، فالعقلاء ينزهون أنفسهم عن هذه النقيصة التى هى شأن النسوان والصبيان، فأقوياء الرجال تكون شهواتهم طوعهم، وأهل الضعف والعجز هم طوع شهواتهم كما قيل:

ولا يدرأ النفس الجموح عن الهوى ... من الناس إلا وافر العقل كامله

قال سيدنا علىّ رضى الله تعالى عنه: العاقل عدوّ لذته والجاهل صديق شهوته، ولا مثل هؤلاء المساكين أرقاء الشح المبتلين بالجمع والمنع الذين قد استعبدتهم أنفسهم فترى أحد هؤلاء المساكين لا يستطيع أن يصبر نفسه عن أحقر شيء من ملاذ هذه الدنيا، فترى أحدهم يكون ذا سنّ ومنظر وأبهة وتراه مع ذلك كالطفل الصغير الذى لا تمييز له يردعه عن قبيح ما يأتيه مما تغلبه عليه نفسه الصغيرة فغرائز الأنفس فى نسبتها إلى الحق والباطل

(١) أى تنأى عنها بمجاهدة وصعوبة.

تختلف اختلافاً بيناً، فأصحاب الأنفس القوية الخصيفة شيمتهم الميل إلى الحق والالتذاذ بالأمور الصحيحة فترى أنفس هذا القسم من الناس تتألم من الباطل وتأباه ويتصعب عليها الدخول فى شيء منه إذا ألجئت إليه لكون الباطل منافياً لجبلاتهم، وأصحاب الأنفس السخيفة الضعيفة شيمتهم الميل إلى الأباطيل والأشياء التى لا حاصل لها، وليس لهم همة فى طلب شيء له حقيقة ،وربما صدرت عن أهل هذا القسم الأمور المستقبحة عليه، ثم يندمون عليها وينقادون إليها بزمام جبلاتهم كالكذب مثلاً فإنه قد يصدر عن أقوام عادة وغلبة، فأصحاب هذه الجبلات يلتذون بإلقاء ما فى أنفسهم حسناً كان ذلك أو قبيحاً لكون طباعهم تقودهم إلى ذلك وحكم الطبع يلزم الإنسان حالاً يحكم عليه فيعتريه شبه النشوة عند ميل طبعه ويسلب تمييزه لينفذ فيه الأمر الذى يراد منه فلا يشعر بنفسه حتى يقع فيه، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى.

قالت وأبثثتها وجدى فبحت به ... قد كنت عندى تحب الستر فاستتر
فلست تبصر من حولى فقلت لها ... غطـــى هواك وما ألقى على بصر

وهذا كله من موت القلوب وظلمتها وضعف النفوس وسخافتها؛ لأن التجربة قضت أن هؤلاء القساة القلوب هم الضعفاء النفس الذين تغلبهم أنفسهم فيصبحون أسراء أنفسهم وشهواتها الدنيئة وإن كان القوم أقوياء القلوب، وإن أصحاب رقة القلوب ولينها هم الأقوياء الذين تصغر الدنيا فى أعينهم وتشرف أنفسهم عنها، وهذا مثل ما تقدّم لنا من القول أن أصحاب قوّة الحس يضرّ ذلك بعقولهم وإن أصحاب العقول الثابتة ينقص ذلك من إحساسهم فى أغلب الأحوال لتتعادل الأشياء ولتتقابل المخلوقات؛ لأن التكميل فى هذا العالم مستبعد جداً قليل الوجود.

كلما انجلى الرين عن القلب وصحت النفس من سكر الهوى تمكن الإنسان حينئذٍ من تلمح معايب نفسه : ومنه قول سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : رحم الله امرأ أهدى إلى عيوبى ، والعاقل لا يزال يطلب الإصلاح لنفسه ويجتهد فى تقليل عيوبه ؛ لأن الإنسان لابدّ فيه من نقائص ومعايب ، فالعاقل يعرف ذلك من نفسه ، والجاهل عاجز عن رؤية ذلك من نفسه لكون نفسه غارقة فى بحر الهوى والتخليط الغالب على سرّه فهو عند نفسه أكمل الناس ولعلّ نقصه يظهر لمن عنده أيسر تمييز ، مثاله أن الإنسان ذا الهمة إذا عرف من نفسه صفة الكبر والميل إلى الترفع على الناس كره ذلك من نفسه لعلمه أن هذا خلق ذميم مبعد عن الله تعالى ؛ لأنه من صفات الربوبية وينافى حال العبودية وهو يمقت العبد عند الناس ،وإذا عرف العاقل ما يلزم من هذا الخلق الردىء من الضرر جهد فى إزالته عنه بمعاشرة ذوى المسكنة والخمول وخفض من نفسه فيقارب الفقراء فى أحوالهم ، فإذا رأى العاقل ما يلزم من هذا الخلق من الضرر وأن لا حاصل له سوى زهو النفس والبذخ على الناس أشفق من تعلق هذا الخلق به واهتمّ بإزالته عنه ، وربما خيل الشيطان للإنسان أن الترفع على الناس يحفظ على الإنسان منزلته ووجاهته فيكون ذلك سبباً لدوام معيشته وصلاح حاله ، وليس كما يخيل إليه بل الأمر بالضد ؛ لأن الكبر يمقته عند الناس ويضع منه فتنفر النفوس عن نفعه ، والمتواضع يصلح حاله لمحبة الناس له كما ترى الناس يرفعون المتواضع ويضعون المترفع ، فالجاهل أفرح الناس بحاله وأكملهم فى نفسه ولو فطن المسكين لما فيه من النقص ، لبكى على نفسه كما قيل :

الناقص مستور عنه نقصه ولولا ذلك لتقطعت نفسه حسرات، فمن خصائص العقل أن العاقل قد يكون كثير الفضائل يغبطه الناس على ما فيه من الصفات الحسنة وهو مستصغر لحاله ذامّ لنفسه لا يزال متألماً حزيناً لنظره فى العواقب وخوفه من مفاجأة الخطوب وصدماتها، فشيمة زماننا هذا أن يتعب الأفاضل وأن يسرّ الأراذل كما قيل:

أرى زمن النوك[1] أسعد أهلـــه ولكنمـــا يشقى به كل عاقل

مشت فوقه رجلاه والرأس تحته فكب الأعالى بارتفاع الأسافل

فنغص حظ الأكرمين انقلابه وأعلى رجالاً من شرار القبائل

فالذى يقدر الإنسان على النظر الصحيح فهو التوفيق منه تعالى بسبب حسن المعاملة، ألا ترى إلى قول الفضيل بن عياض رحمه الله: من عامل الله بالصدق ورثه الحكمة، وإلى قول العارف الآخر فى ضدّ المعنى: من خان الله فى السرّ هتك الله سرّه فى العلانية، معناه أن الإنسان إذا أكثر التمرّد على الله تعالى عجل له من العقوبة ما يفضحه بين الناس يأتى القبيح وهو لا يدرى لكونه قد رين على قلبه، يشهد لهذا قوله تعالى ﴿ كلا بل ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون ﴾[2] فأعمال الخليقة لاشك تولد عليهم أحوالاً فى قلوبهم إن خيراً فخير وإن شراً فشرّ، فالإنسان إذا صحح أعماله وخلصها من الرياء والشوائب المفسدة لها فإن الله تعالى يهدى قلبه فيزول عن قلبه الزيغ ويذهب الغشا من بصيرته وينفذ تلمحه فى الأشياء فيميز بين الأمور الصحيحة وبين الأمور الباطلة بما منحه الله تعالى من صحة النظر فيصح إدراكه للأشياء وينعم باطنه ويصير قلبه موضع تنزهه ومحل راحته؛ لما

---

(١) الحمق.

(٢) المطففين: ١٤.

يشاهد فيه من العجائب وأسرار الملكوت ، فإن قوّى توفيق هذا العبد شيء آخر فترقى إلى المرتبة العليا فهى أعلى مراتب رجال الحق تعالى ، وهو أن يصير هذا العبد الذى قد استشعر باطنه الصحة وتلمح الأشياء ببصيرة ثاقبة سالمة عن الأهواء المخبطة للقلوب وقّوم الاعتدال زيغ قلبه حاضر القلب بين يدى الرب تعالى لا يزال قلبه مراقباً لجلال الربوبية مديماً للذكر مراعياً لقلبه من الخواطر السيئة المدنسة لها ، فهذا شأن الخلص من الرجال فاعلم .

وأما الأعمال السيئة ،فإنها تولد على الإنسان ضد ما تقدّم ذكره فقد يكون عند الإنسان نوع خير فيغفل المسكين عن نفسه فربما سامح نفسه فى شيء من الذنوب وإن قل فيدرّ به ذلك إلى ما هو أكبر منه ؛ لأن هذه الشرور تتلازم ويجرّ بعضها بعضاً فيتطرق صغار تلك الذنوب إلى كبارها فيرد على قلب هذا الإنسان الذى قد فتح على نفسه باب المعاصى الرين وعمى القلب فتظلم بصيرته ويتخبط فى أمره ، فربما قصد الحق فيجنح به الحال إلى الباطل ، وربما آثر الطاعات فيقصر عنه التوفيق فيقوده الهوى إلى أمور يظنها طاعات وهى ذنوب خفية وهو لا يشعر لما قد غشى بصيرته من الغشا والظلمة بسبب تمرّده على مولاه تعالى ، هذا حال العباد مع مولاهم فاعلم ، إن أطاعوه وأخلصوا له الأعمال نوّر بصائرهم وهدى قلوبهم ، وإن تمردوا عليه وجاهروه بالمعاصى سلط عليهم الأهواء فأعمت قلوبهم وفسدت أحوالهم ، فاحذر أيها الأخ هذه الأمور المخوفة وتقرّب إلى مولاك بالصدق لينجيك من هذه الأمور والبليات .

دسائس النفس وكيفية علاجها

أيها الأخ العبد الضعيف اعلم أنك مبتلى بهذه النفس التى هى بين جنبيك بلوى ، إن فطنت لشرّها وكنت طالب حق فأن تعرف نقص جبلتها

وتدأب فى إصلاحها ، وإن تركتها وأمراضها ألقتك فى المهالك ، فمن نقصها أنها تنفر من أشياء لا ضرر فيها كما ترى الإنسان العاقل ينفر من كلمة ليس لها وقع ولا حقيقة وربما كانت من صبى لا يميز أو جاهل لا يعتبر بكلامه فتثور نفس الإنسان من ذلك وهو يعلم بعقله أن ذلك الشىء لا حاصل له ولا ضرر منه ، وهذا من ضعف النفس ونقص جبلتها فى أصل الخلقة وكذا ترى الإنسان يذيب نفسه ويهلك دينه فى طلب أمر لا حاجة به إليه كما ترى هؤلاء السلاطين يقتحمون الأخطار ويتحملون الأوزار فى أخذ البلاد وحصار المدن من غير حاجة بهم إلى ذلك بل بمجرد زهو النفس الأمارة بالسوء ، ولو فكر هذا المسكين وكان عنده علم بمعالجة النفس وكفها عن أهوائها الفاسدة لكان يدارى ثوران النفس ويشغلها عن هذا الغرض المتلف واقتحام هذه الأمور العظيمة التى تذهب الدين ؛ لما فيها من الإضرار بالخليقة والفساد فى الأرض ؛ لأن شمول الغفلة وسكر الهوى يمنعان العقل أن يعترض على النفس فإذ ذاك تتمكن النفس من غلوائها ويتسلط الشيطان على العبد فيزول عنه التوفيق ويصير منقاداً بزمان الهوى لا يكاد يخلص منه فكأنه يقول بلسان حاله اللائمة :

فكيف يصنع من أقصاه مالكه   فليس ينفعه طبّ الأطباء

فهذا المعنى : هو الذى يدأب الصالحون . فى علاجه ومداواة أنفسهم منه ، فمتى أحسوا بتغيير شىء من أخلاقهم سارعوا إلى علاجه بما يناسب إصلاح ذلك الداخل عليهم : ألا ترى إلى ما ذكرنا من ذى المنصب العالى والجبلة الفاضلة أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وقد رآه عروة بن الزبير يحمل القربة ، فقال : يا أمير المؤمنين لا يصلح لك هذا ، فقال بلى أتانى وفود العرب سامعين مطيعين فداخلت نفسى نخوة فأحببت

كسرها فذهب بها حتى صبها فى بيت امرأة فانظر إلى قوّة هذا الرجل الكامل الذى تستحيل مقارنة شيء من أخلاقه كيف خاف دخول الخلل عليه مع قوّته وعلوّ شأنه، فما ظنك بنا ونحن جيل ضعيف وزماننا زمان نقص، فافطن أيها الأخ لهذه الأسرار وجاهد نفسك مجاهدة إن كنت طالب حق فقد نبهتك فى هذا الفصل على شيء من أخلاق النفس ونقصها فانتبه واسم بنفسك إلى أخلاق رجال الحق جلّ جلاله ولا يغلبنك العرف الفاسد والنفس الحرون واقتف مسالك الرجال أبطال الطريق الذين أمدوا بالتوفيق وهدوا إلى سواء الطريق.

الممدوح من حسن الخلق

حسن الخلق صفة حسنة، وهى من صفات الرجال: وذلك لطيب أنفسهم بما منحهم مولاهم تعالى من العطايا السنية والمواهب الجليلة: فبذلك تحسن أخلاقهم وتنشرح صدورهم، ولا كذلك أرباب الدنيا فإنهم يستولى عليهم الضجر والملال والهموم لتشبثهم بالأمور المتعبة التى تعجزهم، فمن شرد على مولاه خرب قلبه وتخبط باطنه، فإذا التفت هذا الإنسان إلى باطنه فرآه خراباً مخبطاً مظلماً ، حزن لذلك وساءه أمر نفسه فيضجر ويضيق بأمره ذرعاً فيطلب الإنسان الاستراحة بما يغفله عن ذلك الفكر فى حال نفسه ، كالجلوس فى الطرق مع البطالين والاسترواح إلى العبث بالكلام الفارغ كل ذلك يفعله الإنسان استقالة من الفكر فى أحوال نفسه ،ولا كذلك رجال الحق تعالى فإن بواطنهم منوّرة وأفكارهم حسنة يستأنسون ببواطنهم ويرتاحون بمطالعة أسرارهم.

واعلم أن حسن الخلق الممدوح ليس ما يظهر على الوجه الوضيء من البشاشة التى لا أصل لها فقد تظهر على الإنسان البشاشة وتكون أفعاله سيئة، إنما حسن الخلق طلاقة الوجه الرضى التى يمدّها صلاح القلب فتظهر منه الأفعال الجميلة، هذا هو حسن الخلق فافهمه، وكذا قد صار أهل العرف يطلقون العقل على من يكون ساكن الظاهر خامد النفس متثاقل الحركات كثير الصمت، وهذا قد يكون فى قوم ضعيفة عقولهم: وكذا العقول قد تكون فى قوم حداد. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم «من خيار أمتى أحدّاها»[١]. إنما العقل ما قدّمنا لك القول فيه، وهو حسن النظر وصحة الرأى سواء كان ذلك حديداً أو ثبتا. وأوضح دليل على عقل الإنسان اختياره لاسيما إذا عزفت نفسه عن هذه الدنيا الدنيئة فهو أدلّ دليل على صحة عقله، ولا يغرّنك ما ترى فى أقوام من ذرابة لُسُن أو ترصيف كلام فإن ذلك قد يكون صناعة يتعلمها الإنسان، والعقل غريزة ممدوحة قد تكون فى أقوام يغلب عليهم العىّ[٢] والحياء، وذلك لا يضرهم ولا يقدح فى صحة نظرهم وجودة تمييزهم.

يجب على طالب العلم المحافظة على وقته

نزيد على ما تقدم فنقول: أيها الأخ المحاول للعلم ينبغى أن تكون حافظاً لوقتك مشفقاً على عمرك أن يضيع فى غير فائدة فلا تحاول من العلوم إلا ما أكسبك خلقاً حميداً أو أرشدك إلى عمل صالح، وما عداها من العلوم فإنه ضياع وقت واشتغال بما لا يجدى، وربما ضر لأنه قد ورد: العلم إن لم ينفعك ضرك، فانظر لنفسك أيها الأخ ولا تغترنّ بما ترى فى أيدى بعض أهل الوقت

---

(١) يقال: ذرب لسانه: إذا كان شتاماً فاحشاً لا يبالى ما قال.

(٢) العَى: العجز عن التعبير بما يفيد المعنى المقصود.

من العلوم التى لا جدوى لها فجانبها واحذر أهلها فإنهم مفتونون قد دخل عليهم الشيطان، فاجهد أن تأخذ من العلوم ولا تأخذ منك واحفظ عليك حرمتك وأخلاقك. واعلم أن من شأن العلوم أن تحرك نارية النفوس، وكذا المال والجاه، فانتبه لنفسك وقدّم الحذر فى أمورك ولا تهمل وإلا تعلقت بك المذامّ وصرت منقوصاً بين إخوانك فاحفظ عليك مروءتك ولا تقل لا أبالى بمن قال، فقد قيل للأحنف: بم نلت المروءة؟. قال لو عاب قومى الماء البارد ما شربته، واعلم أن رفعة الدنيا كالعلم والمال والجاه إذا صادفت نفساً ضئيلة صغيرة أكسبتها طيشاً ورعونة وصار صاحبها أحدوثة بين الناس، وإذا صادفت نفساً شريفة قوية أكسبتها فضيلة وجلالة كالرياح الشديدة إذا صادفت ريشاً طارت به إلى كل وادٍ وإلى كل ناحية ولا تؤثر فى الجبال الرواسى كذلك حال النفوس إذا وردت عليها الملاذ والشهوات كالصور الحسان مثلاً، فإذا وردت على الإنسان الثابت فإنه يضعضع منه شيئاً يسيراً ثم يثوب إليه عقله فيثبت لها وقاراً ورصانة، وأما السخيف العقل فتتعبه ويطيش عقله منه فيصير كالسكران الذى قد غلب على عقله السكر فهو كالغريق فى سكرته:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه ... يؤثر فيه الخمر فى حال سكره
فيأخذ من عقل كثير أقلــــــــه ... ويأتى على العقل القليل بأسره

فالعاقل الذى يحفظ وقته ويحكم أموره بالفكرة الصالحة ويقدر الأمر قبل وقوعه فيه ولا يهمل النظر فى عاقبته. واعلم أن كثيراً من العلوم التى قد أحدثت فى زماننا هذا لا يحصل لأربابها منها لا خلق حميد ولا عمل صالح إنما يحصل للإنسان منها الأخلاق الذميمة من الاستطالة على الناس وخبث الأنفس بما يتخيل للإنسان فى نفسه أن أحداً لا يصل إلى ما وصل إليه،

وهؤلاء الناس جهال عوام لا يفهمون الدقائق والغوامض فيستولى على الواحد منهم الشيطان ويضيع عليه زمنه في أهواس وتخاييل لا يحصل منها إلا على سوء الأخلاق وتضييع الزمان فافهم هذا واعمل عليه، فقد محضتك النصيحة. فإذا وجدت فى نفسك نزغاً من الشيطان فاستعن بمولاك يغيثك فليس يخلصك إلا الالتجاء إليه عز وجل أنه سميع مجيب.

وجوب الاقتصاد في كل ما يصدر من السالك

أيها الأخ لا يكن زهدك عجزاً وبطالة ولا خيرك تماقتاً وركاكة، ولا عملك عجباً واستطالة، ولا حبك هوى وشغفاً، ولا سعيك كدحاً وتهالكاً، ولا إقدامك رعونة وتهوّراً، ولا كرمك تبذراً وإسرافاً ولا كرهك بغضاً ومقتاً، ولا أكلك نهماً وجشعاً، ولا تعززك كبراً واستطالة، ولا تواضعك ضعة ومهانة، بل اقتصد فى أمورك وجانب الإفراط فى أفعالك، فكل شىء إذا اقتصدت فيه وقع الموقع الحسن، وإذا أفرط فيه أو قصر الإنسان عما يستحقه صار إلى حد النقص، حتى فى الأخلاق والأعمال ينبغى للإنسان أن يقتصد فيها ولا يفرط.

مثاله أن البشاشة حسنة. فإذا افرط فيها صارت إلى حدّ السخافة ، وكذا القول الجميل ، وحسن التودّد الذى يلقى الإنسان به الناس إذا أفرط فيه صار إلي حدّ الملق، وكذا ينبغى الاقتصاد فى سائر أنواع الخيرات، وأعمال البر بأن يجانب صاحبها الإفراط، فإن الخيرات إذا أفرط فيها انقلبت إلى ضدّ حالها كما قيل: الشىء إذا زيد فى حدة انقلب إلى ضده، فالسر فى النهى عن الإفراط فى الأشياء كلها أعمالاً كانت أو أخلاقاً أو غيرها خفىّ، وهو أن الإنسان إذا تكلف أمراً من هذه الأمور المفرطة اعترى النفس نوع عجب فيرى الإنسان حينئذٍ نفسه بعين العلو على الناس والاستصغار لأحوالهم

حيث قد أتى بما يعجز عنه غيره كمن إذا قام الليل ولم ينم أو صام فلم يفطر، والعجب رديء مفسد للأعمال فلأن يعمل الإنسان عملاً متوسطاً من أعمال الخير خير له من أن يفرط في عمل، وهو به معجب فاعلم، وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «بعثت بالحنيفية السهلة السمحة»[1] فالطريقة الوسطى شأن العقلاء ذوي الفهم لأن طريق ذوي المعرفة مجانبة الهوى، فالإفراطات كلها مرجعها إلى الهوى، والتقصير عما يستحقه قوله تعالى «والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً»[2] وقد جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن البغضة "وهي الحالقة، لا أقول تحلق الشعر لكن تحلق الدين»[3] والبغضة الحالقة هي الإفراط في الكره، فالكره إذا أفرط فيه صار بغضاً، والبغض إذا أفرط فيه صار مقتاً، وكذا الحب إذا أفرط فيه صار هوى، ويدخل الداخل على الإنسان في الهوى كيفما تصرف لأنه يلزم منه الشغف والطيش، ويعتري الإنسان منه حالة عجيبة تشبه السكر فيمنعه التمييز وصحة الرأي.

وجوب شغل النفس بالخير

اعلم أن هذه النفس التي بين جنبيك لا بدّ لها من شيء تشتغل به، فأنت إن كنت تحسن أن تشغلها بالخيرات قنعت بها وانقادت لها، وإلا مالت إلى الأباطيل والشهوات كما قيل: النفس إذا تفرغت نازعت إلى الفحش؛ لأنها لا بدّ لها من شيء تشتغل به إن كان خيراً وإلا فشراً ؛ لأن النفس تشبه النار لابدّ لها من حطب وإلا خمدت، فمتى قدر الإنسان على تأسيسها وتدريبها على الخير وإلا شردت عليه وألزمته الدخول في الشرور، ويتصعب على الإنسان حينئذٍ الخلاص ، منها لأن بين الشرور وبين النفوس مناسبة أكيدة، فهي إذا تشبثت بالشرور صعب خلاصها منها لكون الشرور مناسبة لخلقها،

ولهذا المعنى ينبغى للإنسان إذا أراد إدخال النفس فى طريق الخيرات يترفق بها ويداريها ولا يعنف بها ؛ لأنها غريبة في مسالك الخيرات وليست من جبلتها ، فإن لم يحسن المداراة لها والرفق بها وإلا نفرت منه وشردت عليه ، والطريق إلى ذلك أن لا يضيق عليها بالكلية ، بل يسامحها أحياناً فى نيل شيء من الراحات المباحة . فإن ذلك يعينها على احتمال أفعال العبادات لأن النفس كالمطية إن لم يراع الإنسان علفها وسقيها وإلا قطعت به أحوج ما يكون إليها ، وأصل هذا كله من قول النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه بالرفق »[1] فهذا يعرفك أيها الأخ الصالح السالك كيف تسلك فافهم واعمل يوفقك الله تعالى .

آداب الذكر وشرائطه

علم أيها الأخ أن الذكر عبادة جليلة مأمور بها وهى شعار الصالحين وعمدة المتسلكين ،وله آداب وشرائط .

فمن آدابه أن يكون على الإنسان الوقار والسكينة حالة الذكر .

ومن شرطه أيضاً حضور القلب ومواطأة العقل باللسان ، وسر الذكر هذه الحالة التى أذكرها لك ، وهو أن الإنسان كلما لفظ بكلمة من الذكر يجب أن يتصوّرها ويعرف القلب معناها كما يتصل اللسان باللفظ يتصف القلب بمعنى ذلك اللفظ ، والذاكر ينبغى له أن يراعى أموراً ثلاثة :

أحدها حسن اللفظ والنطق به بثبات وتؤده واعتبار .

الثانى أن يتصوّر القلب معنى ذلك الكلام مواطأة بين القلب واللسان .

---

(١) رواه البيهقى .

المعنى الثالث، وهو الأصل أن تكون كلية نظر العبد حالة الذكر إلى المذكور جلت عظمته ولا تكن كلية همه مقصورة على الذكر فقط فيغفل عن المذكور: مثال ذلك أن العبد إذا قال سبحان الله فينبغي أن يتلفظ بهذه الكلمة العزيزة بثبات وتبين من غير عجلة وأن يشعر القلب بمعناها، وهو التنزيه لله تعالى، ثم ليكن جلّ نظره متعلقاً بالمذكور سبحانه وتعالى أكثر من تعلقه بالذكر فأعلى أحوال الذكر أن يستغرق الذاكر هيبة المذكور تعالى فيغفل الذاكر عن وجود نفسه ويصير قلبه متعلقاً بالمذكور تعالى جملة فلا يلتفت إلى شيء سواه، هذا هو سر الذكر فافهمه واعمل به تصب بعون الله تعالى ومشيئته.

فضل العزلة وعدم الشهرة

اعلم أن العبد إذا قاربت حاله التمام مال إلى الخمول وآثر العزلة استئناساً بسره وابتهاجاً بما منح من عمارة قلبه وطلباً للسلامة من الفتن والإعانة على الخيرات. قال سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه: خذوا بحظكم من العزلة، وليس للعبد المتخصص فى وقتنا هذا مثل الخمول فإنه وقت صعب قد فسدت فيه المودّات وقلت فيه الخيرات، فحسب الإنسان اليوم العزلة والخمول ليسلم له دينه وليعف عن قرناء السوء، فالعارف يستطيب الخمول ويغتبط به أكثر مما يستطيب غيره بالشهرة والرياسة على الناس، وما أحسن ما قيل فى هذا المعنى:

ألا حبذا عيش الخمول وحبذا مقيلى فى أكنافه ورقادى

خمول ولين طاب مثواى فيهما فقد جهل الحساد طيب مهادى

ولقد أحسن أحنف العكبرى أيضاً فى هذا المعنى حيث قال:

من أراد الملك والراحة من هم طويل فليكن فرداً من الناس ويرضى بالقليل

ويرى أن قليلاً نافعاً غير قليل يترك الكبر لأهليه ويرضى بالخميل

ويداوى مرض الوحدة بالصبر الجميل لا يمارى أحداً ما عاش فى قال وقيل

ثم مع ذلك لا يعرف سمحاً من بخيل فإذا كمل هذا كان فى ملك جليل

أف من معرفة النا س على كل سبيل

ولعمرى لقد أجاد هذا الشاعر وشعره هذا عين السلوك.

حقيقة معرفة الرجال

اعلم أن ذوى المعرفة يعرفون الرجال بالحق والجهال يعرفون الحق بالرجال، ومعنى هذا أن العاقل ذا المعرفة لصحة رأيه إنما يثبت الفضيلة للإنسان إذا رآه مائلاً إلى الحق؛ فلمعرفته بالحق يعرف أصحابه، والجاهل لا يعرف الحق، فكل من كثرت جموعه وأصحابه واشتهر فى الناس قال هذا على الحق.

وكل ما يفعله صواب لقلة علمه بالحق، ومعنى معرفته الحق بالرجال أن يقول هذا الرجل القليل العلم هذا الأمر حق لأن فلاناً قاله أو فعله، وقد دخل من هذا الأمر داخل عظيم على العامة المساكين وتبعوا أقواماً أراذل جهالاً أضلوهم وهم يحسبون أنهم مهتدون، فهذه الجموع الكثيرة من أصحاب المذاهب المختلفة ما يمكن أن يكون جميعاً على جبلة واحدة فى سوء التمييز وفساد التصوّر إذ الخليقة الوافرة لا تتفق على جبلة واحدة، فقد يكون فى هذه الجموع من له عقل وتمييز، ولكن ينقهر عقله وينقلب تمييزه لتكاثر الجمع على مخالفته فيتهم العاقل إذ ذاك عقله، ويستصعب مخالفة طائفته

ويستروح إلى متابعتهم ويعجز عن الشذوذ عن جملتهم فتصير موافقتهم له عادة فيترك تمييزه ويتبع الجمع، لأن مخالفة الإنسان للطائفة التى هو واحد منها داعية إلى فساد حاله وعيشته، فالقوى العاقل ربما خالف بصحة نظره الجموع الضالة باطناً ويوافقهم ظاهراً مداراة، فإن كان الإنسان تامّ العقل ثبت على هذه الحالة، وإن كان متوسط العقل يعجز عن النظر والتمييز واتهم عقله فى مخالفة أهل مذهبه فتابعهم وانخرط فى سلكهم وألقى إليهم مقادته فغلب على هذا الإنسان حينئذٍ العصبية وسوء الرأى.

فضيلة الشكر وأقسامه

اعلم أن الشكر من الطاعات المأمور بها، وهو عبادة حسنة تؤذن لصاحبها بالمزيد. قال الله تعالى ﴿ لئن شكرتم لأزيدنكم ﴾[١] .

فمعنى الشكر الاعتراف لله تعالى بالنعمة وحمده تعالى عليها، وهذا نوع من التوحيد يحسن موقعه من العبد كما أنه يناسبه، ودوام الغفلة نوع من الكفران. واعلم أن للنعم أثماناً وعليها حقوق وواجبة ومطالبات لازمة لا ينبغى للعبد أن يهملها بل يهتم بها ليقوم بشكرها، فمن أهمل شكر نعمته كتبت عليه خطيئة قال الله تعالى ﴿ ثم لتسئلنّ يومئذٍ عن النعيم ﴾[٢]وقيل الشكر ثمن النعمة وإن جلت.

واعلم أن الشكر يختلف باختلاف أحوال العباد، فشكر ذوى اليسار مساعدة المستضعفين وإقراض المحتاجين، وشكر الفقراء الإكثار من قول الحمد لله، وشكر أصحاب العبادة إدامة الخضوع، وسجود الشكر لله تعالى على توفيقهم لتلك العبادة.

---

(١) إبراهيم : ٧ .

(٢) التكاثر : ٨ .

واعلم أن العبد إذا تواترت لديه النعماء فسبيله الإكثار من الشكر ،وإذا لمت به البأساء فطريقه الصبر وكيف يليق بك أيها العبد الضعيف أن تغفل عن الشكر لمن قد عمتك رأفته، وسبغت عليك نعمته في أمور كثيرة قد يفطن لها وقد لا يفطن، فأدم شكر المحسن إليك الرءوف بك الحكيم في صنعه لك المتقن فيما تطول به عليك الذى خلق لك القثاء والخيار والدباء، ونحوها في فصل الصيف، وخلق لك الشلجم والفجل والجزر في فصل الشتاء، تعديلاً لحرارة الصيف ببرودة هذه الخضرة ولبرودة الشتاء بحرارة هذه الأشياء، وكذا خلق لك سبحانه وتعالى التفاح والأجاص، وغير ذلك من الفواكه الحامضة في فصل الصيف، لما كان هذا الفصل حاراً يابساً مثيراً للمرأة الصفراء، فهذه الأشياء تبرد وترطب وتصلح ما يحدثه الحر في الأبدان من الحرارة واليبوسة بحكمة الله منه تعالى ولطفه، فافطن لذلك واشكر عليه، وكذلك جعل قوتك الحنطة وفضلها على الشعير فكما فضلك فضل قوتك، ثم انظر كيف خلق سبحانه السنبلة ذات ساق طويل القصبة يكون حبها قوتاً لك وقصبتها تبناً للحيوان المسخر لك، وكذا خلق الحنطة حباً صغاراً بحيث يمكن طحنها، فلو خلق حب الحنطة قدر الرطبة أو التفاحة لما أمكن طحنها، وكان يصعب الانتفاع بها فتبارك الله الذى أتقن صنعه رحمة منه بخلقه، واشكر لمن خلق لك الحيوان وسخره لك؛ لتنتفع به فخلق الغنم للأكل لا تصلح لشيء غيره، فانظر إلى رأفته بك كيف خلقها لإدامك وإصلاحاً لطعامك ثم خلق الخيل للركوب، وأهلها للحروب، وأقدرها على الكرّ والفر وخلق فيها السرعة، وأعطاها النخوة؛ ليحصل منها المراد خلقت له ولا كذلك الإبل فإنه تعالى جعل أخلاقها وطية وحركاتها بطية قليلة النفار؛ ليتمكن أربابها من شدّ الرحال عليها ووضع

الأحمال الثقيلة على ظهورها، فلو أعطاها نخوة الخيل، وعزة نفسها لتعذر على أربابها مداراتها ولوجدوا عناء فى الانتفاع بها، ثم إنه تعالى جعلها عالية بقدر ما أعطاها من القوّة، ولو خلقها كعلوّ الخيل مع عظم أحمالها وجفاء أعدالها ، كانت أحمالها تصيب المياه فى المخاضات وتحاكّ الحزون عند صعود العقبات، ومطالع الجبال فجعلها عالية لذلك، ثم أنه تعالى لما أعلى خلق الإبل جعلها تبرك بأيسر إشارة ولو لم تبرك لتعذر الانتفاع بها لعلو قدها ثم جعل رقابها معوّجة لتعين راكبها على الركوب ولولا ذلك لتعذر ركوبها إلى غير ذلك من النعم والحكم التى يطول شرحها فهذه كلها مرافق لك أيها الإنسان، ونعم أنعم بها عليك مولاك يقتضيك الشكر، إن تنبهت لها ثم إنه تعالى أعدم هذا الحيوان المنتفع به العقول حكمة منه وإتقاناً لصنعه كى لا يميز ما تكلفه من الأحمال الثقال ومتاعب الأسفار فكانت تنازع أربابها وتمتنع عليهم ثم أنه تعالى عوضها عن العقول بالأحاسيس الجيدة التى ربما أربت على إحساس البشر فجعل ما أعطاها من الإحساس كافياً فى المصالح التى تراد منها إحكاماً منه تعالى لصنعته واتقاناً لأمر خليقته، فانظر أيها العبد إلى هذه النعم والحكم التى تشهد لبارئها بعزة الوحدانية وعظم الربوبية، وهذا حكم كل شىء فى الوجود من مصنوعاته موضوع على الحكم مرتبطاً على الإتقان لا يخلو شىء من حكمة فتبارك الله أحسن الخالقين، ولكن قد يخفى لأن هذه العقول لا تفى بإدراك الكل، فقس على ما يخفى عنك بما اتضح لك تسترح.

ترتيب الأعمال بحسب الأحوال

واعلم أن العارفين بما منحهم الله تعالى من الفهوم يرتبون الأعمال ترتيباً بحسب الأحوال والأزمان كما أنبأتك فى فصل المتقدم، ولكن ههنا زيادة معنى نذكره.

فنقول : كما أن لكل حال عبادة، فكذا لكل زمان معاملة، مثاله أن الأزمان الصعبة التى تظهر بها مسكنة الناس وتضيق فيها أرزاقهم فهناك ينبغى أن تكون معاملة العبد تفقد المساكين والنظر فى أحوال المستضعفين كمن أراد أن يبنى بناءً فى نحو هذه الأزمان الصعبة يبتغى به القربة إلى الله تعالى، وأن تلك الغرامة التى أعدّها لذلك البناء إذا صرفها إلى المحاويج المستورين فإن ذلك أفضل له إن كان يبتغى التقرّب إلى الله تعالى، ولم يكن قصده الرياء والسمعة.

وينبغى للإنسان أن يلمح الأزمان التى يستولى فيها الظلم على الناس ويتحكم فيها الأقوياء على الضعفاء، ويكون الإنسان ذا قدرة ومكنة فمعاملة الإنسان فى تلك الأزمان ينبغى أن يكون السعى للناس والاجتهاد معهم، وتخليصهم من أيدى الظالمين، ولا ينبغى للإنسان أن يقول ماذا علىّ وانقطاعى إلى عبادتى أولى بى فهذا غلط من الإنسان وتلبيس عليه، ألا ترى ما جاء فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «أن الله تعالى أمر بعبد أن يُعَذَّب فى قبره فسأل العبد الملائكة ما ذنبى؟ قالوا إنك صليت صلاة بلا طهور واجتزت على مظلوم فلم تنصره» فطائفة من العمال فى وقتنا هذا يخلطون فى الأعمال تخليطات فيصعبون فيما سبيله التسهيل ثم يتساهلون فيما ينبغى لهم أن يحتاطوا فيه فيغيرون ترتيب الأعمال، لا جرم أنهم قد جوزئوا بإضعاف البصائر ولا يجدون طعم المعاملات ولا تتنوّر قلوبهم مع الإكثار من العبادة ولو أحسنوا فى الطاعات لانشرحت صدورهم وانفتحت بصائرهم لكن خلطوا فخلط عليهم كما جاء فى الكتب السالفة : من صفا صفى له ومن خلط خلط عليه، فافهم هذه الأمور واعمل بأسرارها تصب بعون الله ومشيئته.

حفظ القلب من الوساوس والأفكار

ينبغى لك أيها الأخ أن تصون سرك وتحفظ قلبك من الخطرات السيئة والأفكار الباطلة فقلب السالك بيت ماله وعمدة حاله، فمتى خطر بقلبك شيء من الخواطر السيئة فبادر إلى إزالته ومحوه فالخواطر الواردة على القلب مختلفة جداً، فمتى لم يعاجل الخاطر بإزالته ثبت واستحكم وتولدت منه أمور ضارة كالغضب والشهوة، وكذا ينبغى لك أيها الأخ السالك أن تنزه قلبك عن الخاطر الذى لا فائدة فيه كهذه السوانح التى تمر بالقلب، ولا حاصل لها ولا انتفاع بها، وكذا ينبغى لك أن تصون سرك عن تصوّر القبيح كما تصون نطقك عن اللفظ به، فإن السرائر والظواهر من الله تعالى بمنزلة واحدة فليحذر العبد أن يطلع الرب تعالى من قلبه على ما لا يليق كقبح أو فحش أو إضمار سوء أو عزم على أمر يكرهه منه مولاه فإنه يتعرض بذلك للعقوبة الخفية؛ كما قال بعض العارفين: يا أصحاب الذنوب الخفية احذروا العقوبة الخفية ؛ لأن الأمور أكثر ما تقع معاوضة ومجازاة كما قد ورد فى الكتب السالفة «ابن آدم كما تدين تدان، وكما تزرع تحصد» وقد تقدّم لنا من القول أن معوّل العارفين على أعمال القلوب ومراعاة السرائر فيحفظ أحدهم قلبه كما يصون سواد عينيه، لأنهم قد تيقنوه وقبلوه علماً أن أسرار القلوب هى أصول المعاملات، وأساس الخيرات كما ذكرنا فى الفصل المتقدم، ويؤيد هذا الكلام قوله صلى الله عليه وآله وسلم فى حق الصديق رضى الله تعالى عنه: «ما سبقكم أبو بكر بكثير صوم ولا صلاة، ولكن بشيء وقر فى صدره» [1] فحافظ أيها الأخ السالك على مراعاة قلبك وطهره من الخواطر التى تدنسه، واحذر أن يطلع عليك الرب جل جلاله وقلبك فاسد فيعرض عنك لأن للرب تعالى إلى القلوب نظرات فاعلم.

---

(١) قال الملا على قارى فى الأسرار : هذا من كلام أبى بكر بن عياش .

مخالطة الناس على التقوى

اعلم أيها الأخ أن من شأن الإنسان أن يتوحش من الانفراد ويقصر فى السلوك إذا كان من أهل البطالة، فينبغى لكم معاشر الإخوان أن لا تعجزوا عن المعاملات ولا تضعف عزائمكم عن الخيرات إذا قلّ أهلها ؛ لأن الإنسان الفطن ؛ لقوة فهمه لا يتخالجه ريب فى أموره فيقدم على الخيرات وإن كان وحيداً ولا يرى الناس قد أحجموا عن الخير فتخذله النفس الحرون وتسوّل إليه التشبه بهم، هذا كثيراً ما يقع لبعض السالكين ؛ لضعف بصائرهم وقلة علمهم، فالإنسان العارف إذا عرف سر الله تعالى فى خليقته من أن أهل الخير قليل، وأن باب التوفيق ضيق قليل أهله قد أجرى الله تعالى عادته بذلك فى بريته هكذا لم تمنعه قلة الخيرات من حسن المعاملة فافهم هذا واحذره، وكن هامّاً ذا عزيمة وكن فى طلب الآخرة الجليلة : كما قال بعضهم فى طلب الدنيا الدنيئة :

إذا همّ ألقى بين عينيه عزمه ... ونكب عن وقع الحوادث جانباً

ولم يستشر فى عزمه غير نفسه ... ولم يرض الإقائم السيف صاحباً

أيها السالك عليك باسترضاء الرب بالتقرب إلى قلوب خواصه

أيها العبد المبتلى بكثرة الأموال ووفور الأعراض انتبه لما أقول لك : إذا أردت أن تنجح مساعيك وتحسن عواقبك وتمشى أمورك فصانع ربك مصانعة فى أمورك وأحوالك فعامله باليسير ليبقى عليك الكثير، لاسيما إذا ورد عليك أمر تخاف عاقبته ولا تدرى كيف المخرج، فأكثر المعاملة للرب تعالى حينئذٍ، وعليك باسترضائه بالتقرب إلى قلوب خواصه من خلقه، وهم

الصالحون والزهاد والعباد جبراً لقلوبهم وتفريحاً لصغارهم، وهم هؤلاء الأخيار الأبرار الأتقياء الأخفياء الرقة أحوالهم الشعثة هيأتهم، ذوى النحول والخمول، فهؤلاء هم خواص الملك الذين بأيديهم راية الله تعالى رؤساء عباده وأنصاره وبطانته وصدور مواكبه، فعليهم سلام الله ورحمته وبركاته، وبقية الناس وإن حسنت ظواهرهم وعظمت فى الدنيا أقدارهم فهم أتباع وحاشية، ومجالسهم فى الأطراف لا يمكنون فى الوصول إلى الملك، فبطريق هؤلاء العباد توصل وبحرمتهم توسل ومن عندهم تعرّف إلى الرب تعالى، واحذر أن يكون لك منهم خصيم فتخاطر بنفسك لأن الله تعالى هو المنتصر لهم، فهؤلاء الخواص المكرمون والأبرار المقربون هم المرادون بقول الشاعر :

يضىء ظلام الليل حسن وجوههم　　فهم فى الليالى المظلمات بدور

هم القوم لا تلهيهم عن مليكهم　　تعالى دنيا بالغرور تدور

روى أن موسى عليه السلام. قال يا رب أين أجدك إذا طلبتك؟ فقال له الرب تعالى تجدنى عند المنكسرة قلوبهم من أجلى،وكذا روى أن الرب تعالى. قال : بعينى ما يتحمله المتحملون من أجلى.

فاعلم أيها العبد المبتلى بالجمع والمنع أنك إذا أهملت مراضى الله تعالى، وتماديت فى غيك فما تخلو عن أحد أمرين : إما أن تكون عبداً قريب الحال من الخير تتعلق بك عناية من ربك تبارك وتعالى، فحينئذٍ يؤدّ بك ربك بشىء من البلوى فربما انعكست عليك أمورك حتى لا يكاد يفوتك شىء من ذلك أن كانت حالك مع ربك كما قلنا، وإن كنت عبداً بعيداً من ربك غريباً من الأنس به فإن حالك غير حال الأول فربما سلمت لك أمورك، وقد لا ينعكس عليك شىء من أمورك لأن عادة الله تعالى مع أهل القرب منه غير عادته مع أهل البعد عنه، فأصحابه إذا أهملوا جانبه أيقظهم وأدّبهم بعكس شىء من

أحوالهم، ولا كذلك أهل البعد عنه لأن العناية عنهم مقصرة والعقوبة لهم متأجلة لأنه قد ورد: أن الله تعالى إذا أحب عبداً أدبه وإذا كرهه تركه بعماه، فكم قد أوقع في محنة وبلية بسبب تقصير في حق فقير مضرور والتفات عن ذى مسكنة محروم.

روى أن الرب تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام: يا يعقوب أتدرى لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف؟ قال لا يا رب أنت أعلم. فقال له الرب تعالى إنكم شويتم شاة ثم اجتمعت أنت وأولادك فوقف على بابكم رجل مريض مؤمن مسكين فشم رائحة طعامكم فسألكم فلم تعطوه فذهب وقد انقرح قلبه. فقلت وعزتى وجلالى يا يعقوب لأقرحنّ قلبك وافرق بينك وبين ابنك يوسف، فقد آن أن تجتمع به فاصنع طعاماً وادع إليه الضعفاء من خلقى فإن الضعفاء من خلقى أحب خلقى إلىّ فصنع يعقوب عليه السلام طعاماً كثيراً ودعا إليه الضعفاء والمساكين، فقام يخدمهم بنفسه فجمع الله تعالى بينه وبين يوسف.

واعلم أيها السالك أن هذا المعنى هو أقرب الأشياء التى يسترضى بها الرب تعالى وانجحها فى استدفاع البليات، هذا شىء مجرب لاشك فيه، وقد أهمل فى وقتنا هذا، لا جرم أن البركات قد قلت على العباد بسبب إهمالهم لحابّ الرب تعالى لأن الله تعالى بكرمه يتحنن على هذا النوع من الخليقة لأنه قد ابتلاهم وابتلى بهم، فإذا أهملوا وطمع فى جانبهم وأضرت بهم الأحوال غضب الرب تعالى فمحق بركات الأرض وأحلّ العقوبات بالعباد فى القلوب والمعايش والأحوال، روى أن بنى إسرائيل أصابتهم عقوبة وشدّة فشكوا إلى نبىّ لهم. فقالوا : وددنا أن نعلم ما الذى يرضى ربنا حتى نفعله؟ فأوحى اله تعالى إلى ذلك النبى: أن قل لعبادى إذا أرادوا رضائى وطلبوا التقرّب إلىّ

فليرضوا المساكين، فإنهم إذا رضوا رضيت وإذا سخطوا سخطت، ولو فطن أهل الدنيا المساكين لأسرار الله تعالى في خلقه، لعاملوه بالأموال ولبذلوا سنىّ الأحوال والتمسوا الأرباح والمكاسب من معاملته بتفقد أحوال المساكين المستضعفين. فإن الله لا يخسر عليه معاملة ولا يخيب لديه مؤمله، وهو يعطى بكرمه على اليسير العطاء الجزيل فى العاجل والآجل، وهو الذى يذكر عبده فى الشدّة إذا كان العبد ذاكراً له فى الرخاء، وهو الذى يغيث عبده فى الضراء إذا كان العبد مستغيثاً به فى السراء، فقد روى أن ملكاً من ملوك بنى إسرائيل كان اسمه أسآء وكان عبداً صالحاً عادلاً فى رعيته قصده بعض الملوك وحصره فى مدينته فخاف أسآء فدخل مصلاه فاستغاث بربه وأكثر التضرع بين يدى الله ثم نام فأتاه آت فى منامه من ربه تعالى. فقال له : يا أسآء إن الله تعالى يقول لك لا تخف فإن الحبيب لا يسلم حبيبه فأنا قد ألقيت عليك محبتى وأيدتك بنصرى فأنا أكفيك عدوك فإنه لا يهون من توكل علىّ ولا يضعف من تقوّى بى قد كنت تذكرنى فى الرخاء أفترانى أنساك فى الشدّة، وقد كنت تدعونى آمناً أفترانى أسلمك خائفاً فأنا الله القوىّ فوعزتى لو كادتك السموات والأرض ومن فيهن جعلت لك من جميع ذلك مخرجاً وفرجاً عاجلاً، فأمور الخليقة واقعة على هذا الترتيب، وفساد الأحوال من سوء الأعمال، وسوء الأعمال من عمى القلب، وعمى القلب من ارتفاع عناية الرب تعالى عن العبد، فالناس يهونون فى هذه الأمور، وهى مهمة لا ينبغى أن تهمل.

وروى أن الرب تعالى أوحى إلى داود عليه السلام: يا داود ذنب عظيم تبكى منه حملة عرشى ومن أجله أمحق الأموال وأفقر العقب فقير شم رائحة قدر غنىّ فلم يطعمه ، فاسمع أيها الأخ واعمل تجد الأمور كما قلت لك بعون الله تعالى ومشيئته.

التعب كل التعب حتى يتمكن الإنسان من القيام بين يدى الله تعالى مقام صريح العبودية ولا ينازع شيئاً من صفات الربوبية كالتجبر والتكبر والتعاظم، فإن ذلك خاص بالربوبية وأما نحن معاشر العباد فحقيقة حالنا الذل والمسكنة، وأبداننا ضعيفة معرّضة للأسقام والآلام، ونحن فى صحتنا وسلامتنا محاويج ذوو فاقة لا تنقضى، وعاقبتنا بعد قليل الموت، هذا حقيقة حالنا، فمن أين لنا التكبر والتجبر والتعاظم؟ وهل ذاك إلا رعونة تعترى النفس وتستخف العقول الضعيفة فينبغى للإنسان أن ينفى هذه الأخلاق عن نفسه؛ لأنه إن نازع شيئاً منها كان كالغاصب ما ليس له، وكذا ينبغى للإنسان أن يجانب أخلاق الشياطين كالإضرار بالناس والخبث وأذية الضعيف، وكذا ينبغى له أن يجانب أخلاق البهائم من التهالك فى نيل الشهوات الدنيئة كالمطاعم ونحوها، بل ينبغى له أن يصون نفسه ويراعى مروءته، ويجهد فى تكميل إنسانيته على الحقيقة فيكون عبداً خيراً متواضعاً صبوراً محتملاً، هذه الصفات هى حقيقة الإنسان فافهم واجهد تصب إن شاء الله تعالى.

فى تحقيق معنى الاستقامة

نذكر هنا جماع أمر الاستقامة، وإن كنا قد ذكرنا فى هذا الكتاب شيئاً منه: إما لزيادة إيضاح أو لكون بعض الكلام يستلزم إعادة شىء مذكور، فهذا هو العذر فى إعادة كلمات قد ذكرت، فالاستقامة هى مطلوب القوم، وهى الغاية القصوى التى من نالها فقد حصل على الفوز العظيم.

فاعلم أيها الأخ وفقنا الله تعالى وإياك وعرفنا قدر أنفسنا أن الاستقامة أن يعتنى العبد بإصلاح باطنه فيعدله عن الزيغ ويطهره من الأخلاق المذمومة

وينقيه من دنس الأهواء، ثم ليصنه عن الخطرات والوساوس الباطلة، وهذه هى السوانح التى قد ترادفت على القلوب ولا حاصل لها، ثم ليعدل العبد أخلاقه تعديلاً فلا يترك شيئاً منها يخرج عن نمط الاعتدال وليضع كلاً منها فى موضعه وليعط كلاً منها ما يستحقه بالنظر الصحيح والبصيرة الثاقبة، فهذا هو التوطئة لكمال الاستقامة وسيجيء تبيين إتمامها إن شاء الله تعالى، وإنما وقفنا ههنا لنبين لك كيف ينبغى للإنسان أن يعدل أخلاقه. فإن إصلاح الأخلاق أصل السلوك.

الوجوه تستمد حالها من القلوب

واعلم يا أخى وفقنا الله تعالى وإياك لمرضاته أنه لا يصلح للحق تعالى إلا طاهر الباطن زكى الأخلاق كريم السجايا، فينبغى للإنسان إذا أراد الإقبال على الله تعالى أن يطهر قلبه من نجس الرداءة والحسد والخبث وجميع الأخلاق السيئة كما يطهر ثيابه من سائر الأنجاس، فنجاسة الظاهر تزول بيسير من الماء، وأما هذه الأخلاق الرديئة التى تنجس الباطن فيحتاج الإنسان أن يتعب فى إصلاحها، وربما اعتاص عليه (أى صعب عليه) شيء منها فيعجز عن إصلاحها، فينبغى للسالك أن يتوجه بكليته باطناً وظاهراً إلى الله تعالى كما يتوجه بوجهه إلى القبلة، فكما لا ينبغى أن يحيد عن القبلة يمنة ولا يسرة فكذا لا يعدل بوجهة قلبه عن ربه تعالى ولا يميل إلى سواه فهذه الأخلاق السرية تحتاج إلى تلمح وتعب لإصلاحها لأن الجيد من الأخلاق قليل، فينبغى للعبد أن لا يزال يتلمح نفسه فما كان منها صالحاً حمد الله تعالى عليه،وما كان منها مائلاً عن الاعتدال جهد فى تقويمه وإصلاحه، فإن هذه الأخلاق الكريمة التى تقرب إلى الله تعالى، والسئ منها هو المبعد عن الله تعالى، فالإنسان إذا اتصف بشيء من هذه الأخلاق السيئة،

وكان كامناً في باطنه كمون النار في الزناد فهو نقص في طريقته، وإن لم يعمل به الإنسان ولم يظهر منه نقص في حاله عند ربه تعالى بحسب ما بطن وانطوى عليه من هذه الأخلاق الرديئة وإن لم تظهر منه؛ لأن الله تعالى يستعرض عن البواطن كما أن علمه محيط بالظواهر ، فالظواهر والبواطن عنده بمنزلة واحدة ، فهذه البواطن لها أسرار عجيبة، وهو أن الكامل منها يظهر أثره على سجية الإنسان فيستنير الوجه إذا كانت الطوية صالحة، ويظهر أثر الخير من أسارير وجه الإنسان في كلامه ولفظه ولحظه، وإذا خبثت الطوية سرى الخبث إلى الوجه فاكتسى الوجه قتمة وظلمة وصار لحظ الإنسان يشهد عليه بمضمون طويته وتلمح من مواقع لحظ الإنسان ومقاصده حينئذٍ الريبة والوحشة، فلا شك أن الوجوه تستمد من القلوب فما في القلوب يستشف من الوجوه ، فكلّ ما في القلوب يشاهد من بشرة وجه الإنسان من وراء ستر رقيق، فإن الإنسان إذا انقطع في مسجد أو زاوية وفي نفسه صفة الكبر والحسد مثلاً ،أو كان باطنه رديئاً قد عدم الرأفة وليس من شيمه الاتصاف بالرحمة فهذا العبد وإن كان صاحب عبادة فهو عبد نجس الباطن، فينبغي له أن يبدأ في تطهير باطنه من الأخلاق المذمومة المبعدة عن الرب تعالى، ثم بعد ذلك يقبل على العبادة هذا هو الطريق، ومن هنا رجعنا إلى الكلام في إتمام تبيين الاستقامة، ومعنى قولنا أن يضع كل شيء من أخلاقه في موضعه؛ ليقف به عند حده: مثال ذلك أن الإنسان إذا كان ليناً رحيماً فلا يفرط في ذلك فيؤدي به الأمر إلى حد السخافة والضعف فيصير يشبه النسوان، بل يكون مع لينه ورحمته ثبتاً صبوراً قائماً بالحق في ماله وعليه وإلا ضيع الحدود وأبطل الحقوق، وكذا إذا كان الإنسان قوياً في أموره ذا نخوة وشهامة فهذه صفة حسنة، ولكن لا يفرط الإنسان فيها فيخرج إلى

حد القسوة والتجبر وينقلب به الحال من حال المحمدة إلى حال المذمة، وإذا كان الإنسان سخياً جواداً فليحذر أن يميل به الحال إلى الإسراف والتبذير، فيضع الأشياء فى غير موضعها فيخرج عن حد الاستقامة وكذا سائر الأخلاق الاعتدال منها هو المحمود، والإفراط والتفريط حالتا نقيصة، وما أحسن ما وصف به سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : أنه القوى من غير عنف، اللين من غير ضعف ما كان أكمله من رجل كانت أخلاقه فى الغاية رضى الله تعالى عنه وأرضاه فإذا وفق العبد لإصلاح باطنه كما ذكرنا تسهلت الطريق بين يديه واستنار باطنه وصار قلبه إذ ذاك قابلاً للخيرات قبول المشكاة للنور التى يكاد زيتها يضئ ولو لم تمسسه نار، فإذا ترقى العبد طبقة أخرى وأحسن التبتل للرب سبحانه وتعالى بهذا الباطن الذى قد تعب فى تنقيته وتطهيره فهو إذا نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء فليقبل هذا العبد إذاً على مولاه تعالى وليدم المراقبة له، ثم ليصرف همه جملة إلى ربه تعالى، ويجهد العبد أن لا يغفل عن ربه طرفة عين، وليكن شأنه إدامة الذكر تقديساً وتحميداً وشكراً وثناء على الرب تعالى فقد آن له وقت العبادة حيث قد صح له تطهير باطنه وتعديل أخلاقه وذلك عزيز قلّ من يقدر عليه، ثم ليدرب هذا العبد نفسه على التفكر وإعمال القلب تنزهاً فى عجائب الملكوت وليدم التفكر فى آلاء الله، وليعتبر بما يشاهد من باطنه من حسن مصنوعات الرب تعالى ولطائف حكمه، وليكن معوّله على باطنه فليجعل جل علمه بقلبه اعتباراً وتفكراً ولا ينبغى للعبد أن يجعل أفكاره مهملة ويضيعها فى غير فائدة فتعود أفكاره حينئذٍ عليه لا له كما نقل عن سيدنا على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : الفكر فى غير حكمة هوس، هذا هو حال أصحاب الحق تعالى، فاعلم.

ثم ليكثر العبد الذى قد استقام باطنه من الأعمال الظاهرة حينئذٍ صلاة وصياماً وقراءة وذكراً، ولتكن أعماله كلها منوطة بقلبه ؛ لأن الأعمال الظاهرة كالفروع متى ما لم تكن مرتبطة بأصولها ذوت لانقطاع مددها من الأصول ؛ لأن الفروع لا تثبت إلا باتصالها بالأصول كذا أعمال العبادة ما لم تكن ممدّة من القلوب تراها كالغصن اليابس لا نضارة فيه ولا رونق عليه، فانتبه لهذه الأمور الغامضة وحسن أعمالك بما قد بينا لك من هذه العلوم والله تعالى الموفق، ومنه المعونة وكل تخبيط يقع للناس فى سلوكهم من جهة إهمالهم لهذا الترتيب فكيف يقبل العبد إذا أقبل على ربه تعالى بباطن دنس مملوء من الأخلاق الرديئة؟ أفيطمع هذا العبد أن يترقى به الحال، هذا مستبعد جداً بل هذا العبد إلى الانحطاط أقرب وإن دأب فى العمل، وإذا رتب أعماله كما ذكرنا رأى الزيادة وانفتحت الطريق بين يديه، فهذه الاستقامة قد بيناها لك فاعرفها .

الاستقامة بين الطبع والتطبع

وهى قد تكون لأقوام مخلوقة فى جبلاتهم ؛ لشدّة عناية المولى تعالى بهم، وتكون على قوم صعبة فيحتاجون يجاهدون ويتعبون ليصلوا إليها وليقاربوها، فهؤلاء الذين تكون الاستقامة لهم جبلة هم الأخيار أصحاب الأخلاق الحسنة والخيرية الظاهرة فوجه أحدهم يشهد بما يجنه ضميره من الخير وحسن الأخلاق فهؤلاء هم الذين قد اعتنى بهم مولاهم حين خلقهم عناية خاصة فجعل جبلاتهم صالحة فهم بخلقهم يميلون إلى الخيرات وينفرون من الشرور طبعاً طبّعهم عليه مولاهم اعتناء بهم وسعادة لهم ﴿ ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾ [1] فهؤلاء أهل

---

(١) المائدة / ٥٤ .

سلامة الصدور وهم المعنيون بقوله صلى الله عليه وآله وسلم «لقد دخل الجنة أقوام بغير أعمال، قيل : من هم ، وبما دخلوها ؟ قال : بسخاوة الأنفس وسلامة الصدور وكذا قوله تعالى ﴿ يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ﴾[1] وهؤلاء السعداء هم الذين توفر قسمهم من النور الذى رش الله تعالى على خلقه حين خلقهم. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « إن الله خلق الخلق فى ظلمة ثم أخذ نوراً من نوره فرش عليهم فمن أصابه من ذلك النور شيء اهتدى، ومن أخطأه ضلّ وغوى»[2] وضدّ هؤلاء من الخليقة قوم من الأشقياء قد مقتهم مولاهم حين خلقهم فوضع خلقهم إلى الميل إلى الشرور وقضى عليهم بالدخول فيما يسخطه من إضاعة أعمارهم فى المعاصى وظلم الخليقة وقهر المستضعفين ونزع الرحمة من قلوبهم، وهؤلاء الأشقياء بالحقيقة، ولو درى هؤلاء المساكين ما المراد منهم، وكيف حالهم ومعادهم لناحوا على أنفسهم.

قد تقدم لنا من إيراد هذه العلوم ما ينبغى لك : أيها الأخ أن تقتفى معانيه وتتأدب بآدابه وأرجو أن يكون فيما أوردناه كفاية لمن وفق وألهم رشده، فألمح بثاقب بصيرتك ما شرحناه من أسرار الحق تعالى فى الخلق وفكر فى غوامضه واسم بنفسك إلى معاملة الرب تعالى بمحاسن ما أوردنا فإنه محض طريق الصالحين ومسالك العارفين : وتنبه لما حذرناك من الأمور المبطلة للأعمال، فحسن أعمالك تحسيناً وزينها تزييناً كما بينا لك فى هذا الكتاب يرد عليك الفتوح من كل جانب وتشاهد أسرار الملكوت مشاهدة ويفرّ منك الشيطان لما يشرق عليك من أنوار الحق تعالى ؛ لأن صحة المعاملة توجب لك ذلك ثم إذا تمت أعمالك وصحت أحوالك واستقمت على سنن

---

(١) الشعراء / ٨٨ ، ٨٩ .

(٢) رواه أحمد والحاكم وابن حبان .

الهداية فعند ذلك سل ربك التثبيت وداوم الهداية ولا تأمن سوء العواقب وزلل الأقدام، فكم رأينا إنساناً على نهج الاستقامة ثم اختلسه الشيطان فرجع القهقرى بعد حسن الحال؟ فلازم الخوف وقدم الحذر وسل ربك حسن الخاتمة واستعذ به من مضلات الفتن ولا تغترنّ بشيء من أعمالك وأحوالك إن لم يمدك التوفيق وتدم لك المعونة منه تعالى، فإن هذا العبد معرّض للمحن والبليات، ونسأل الله تعالى دوام الهداية، ونعوذ به من سوء الخاتمة.

اختلاف الأذكار باختلاف الناس

والآن نشير إلى شيء من أعمال وأذكار ينبغى لك أيها الأخ السالك أن تهتم بها وتحافظ عليها فإن الأعمال منوطة بالهمم، وما بعد العلم إلا العمل، فعليك أيها الأخ بالإكثار من الأعمال الصالحة وراعها بالعلم الذى بينت لك فى هذا الكتاب، فإن كنت غنياً ذا مال وجاه فى الدنيا فطريقك التقرّب إلى الله تعالى باصطناع المعروف؛ إطعاماً لذوى الأكباد الجائعة وتفقدا لأحوال الضعفاء والتوصل بفضلك وجاهك للمظلومين من المقهورين، ليكن ذلك أهمّ أعمالك عندك، ثم بعد ذلك التفت إلى نوافل العبادات ينبغى لك أن ترتب أعمالك فاحذر أن تترك هذا النوع من العبادات فتقدم عليه غيره من سائر أنواع العبادات فإنك إذ ذاك تخلط فى أعمالك تخليطاً ؛ لأن هذا العمل له ترتيب ونظام ينبغى أن تراعى الترتيب ولا تهمله؛ لأن الأعمال إذا أجيد ترتيبها وروعى تحسينها صارت كالبناء إحكاماً وتناسباً.

قال بشر بن الحارث رحمة الله تعالى عليه فى المعنى: مثل الغنيّ المتعبد كالروضة على المزبلة، ومثل الفقير المتعبد كعقد الجوهر فى جيد الحسناء.

قال العارفون : شأن العقلاء وضع الأشياء فى مواضعها ، والجهال بضد ذلك ، فالحق جل جلاله لكرمه ورحمته له رأفة تامة ورحمة عميمة بضعفاء خلقه وأغنيائهم.

روى أن الرب تعالى جل جلاله أنزل في بعض الكتب : ارحم فى عزك ذل المقهورين، واذكر عند شبعك كبد الجائع، واذكر في أمنك حيرة اللهفان، فانظر أيها الأخ إلى وصايا ربنا الرءوف بنا، ما ألطفها وأحسن موقعها، فتأملها وعامله بها، فمن مكنون كلامه العزيز يبين لك شفقته ورحمته لضعفاء خلقه.

وإن كنت أيها الأخ فقيراً لا مكنة لك فى الدنيا فطريقك التبتل إليه تعالى بأنواع العبادة صلاة وقراءة وتسبيحاً وصياماً إلى غير ذلك من الأعمال التى تتقرب بها إليه تعالى كما قد عرفتك فى فصول هذا الكتاب من حسن الآداب فى المعاملة وحضور القلب والخشوع والثبات ولا تهمل شيئاً من ذلك، فإنك إذا أحسنت العمل أذاقك مولاك لذة المعاملة، وفتح بين يديك أبواب الخيرات، وإن خلطت خلط عليك كما تقدّم، فأوّل ما تستقبل به نهارك بعد ما تتوضأ وتؤدّى فريضة الصبح أن تقرأ من الكتاب العزيز ما تيسر، وأقل ما ينبغى من ذلك سورة يس والواقعة وتبارك الملك واستكثر من تلاوة القرآن العزيز مهما استطعت فى هذا الوقت وفى غيره من ليل أو نهار. فإنه النور المبين، وحبل الله المتين من أجلّ معاملات العارفين الإكثار من تلاوته وهو ملجأ المحبين، فأكثر تلمحه واعتبار معانيه وتأدب بآدابه، ولا تهمل أيها الأخ التقرب به إلى الله تعالى فهو من أفضل العمال، لا تبلى جدته، ولا تنقضى عجائبه قيل أن الله تعالى يتجلى لعباده في القرآن ولكن لا يبصرون، ثم ليكثر العبد من هذه الأذكار المعروفة تسبيحاً وتحميداً وتهليلاً وتكبيراً،

وهى الكلمات العزيزات الباقيات الصالحات فإنها ذكر عظيم مأمور به وقد وردت فيها الأخبار الصحاح، وذكر فى التفسير أنها الباقيات الصالحات فى قوله تعالى ﴿ والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً ﴾[1] وورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم «إن الله اصطفى من الكلام سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر الخير كله فيهن»[2] وورد فى الحديث عنه صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال « لأن أقول سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر أحبّ إليّ مما طلعت عليه الشمس» أخرجه مسلم عن أبى هريرة رضى الله تعالى عنه، وروى عن سعيد بن المسيب قال : كنا عند سعد فسكت سكتة ثم قال : قد قلت فى سكتتى هذه خيراً مما يسقى النيل والفرات، قيل له، وما قلت ؟ قال قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر، ثم ليقل بعدها لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيى ويميت، وهو على كل شىء قدير . فإن هذا ذكر عزيز وردت فيه أحاديث صحاح. قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم « من قال لا إله إلا الله إلاً وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير فى اليوم مائة مرة كانت له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزاً من الشيطان يومه ذلك حتى يمسى»[3] الحديث، فليكثر العبد من هذا الذكر العزيز ، ثم ليقل بعده : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم، فقد وردت فى فضيلة هاتين الكلمتين أحاديث صحاح قال النبى صلى الله عليه وآله وسلم :« كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان فى الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله

(١) الكهف / ٤٦ .

(٢) رواه الطبرانى والبزار بنحوه .

(٣) رواه البخارى ومسلم وأحمد وغيرهم

وبحمده سبحان الله العظيم» أخرجه مسلم والبخارى رحمهما الله عن أبى هريرة وليكثر العبد من هذا الذكر العزيز أيضاً مهما أمكنه، ثم ليقل: ما شاء الله لا قوّة إلا بالله فإن هاتين كلمتان عزيزتان قال الله تعالى ﴿ ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوّة إلا بالله ﴾[1] وإذا تأملت سرها رأيتها مشتملة على محض التوحيد؛ لأن العبد حينئذٍ يبرأ عن الحول والقوة ويكل أمره إلى ربه تعالى ،وهذا محض التوحيد، وقد وردت فيها أخبار تدل على عظم شأنها، روى أن موسى عليه السلام سأل من الله حاجة فأركدت عليه ولم ير نجاحاً، فقال (ما شاء الله لا قوّة إلا بالله). فإذا حاجته بين يديه. فقال يا رب أطلب حاجتى منذ كذا وكذا لم أرها إلا الآن قال يا موسى: أما علمت أن أنجح ما طلبت به الحوائج قولك (ما شاء الله لا قوّة إلا بالله)، وقد قيل: إن الكلمة التى تزجر بها الملائكة الشياطين عن استراق السمع هى ما شاء الله، وروى أن الرب تعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام: يا عيسى تزعم أنك لا تسألنى شيئاً وأنت إذا قلت ما شاء الله، فقد سألتنى كل شيء.

ثم ليقل العبد: حسبنا الله ونعم الوكيل يقولها سبع مرات بحضور قلب وحسن نية فهى كلمة عظيمة، ذكر أنها الكلمة التى قالها الخليل عليه السلام حين ألقى فى كفة المنجنيق فجعلت تلك النار عليه برداً وسلاماً.

ثم عليك أيها الأخ بصلاة الضحى فى كل يوم حافظ عليها ولا تهملها، وهى ثمان ركعات فى كل يوم وأقلها ركعتان وأفضل أوقاتها إذا تعالى النهار لأنه وقت غفلة الناس وللمتسلكين عادة حسنة، وهو أنهم يدعون عقب صلاة الضحى فى كل يوم بدعاء الاستخارة يستخيرون الله تعالى فى كل أمر يرومون فعله ويسألوا الله تعالى خير ذلك اليوم ويستعيذون به من شره،

(١) الكهف / ٣٩ .

ودعاء الاستخارة أصل عظيم، وهو فى الحديث الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم ينبغي للعبد أن لا يغفل عنه، بل يجعله نصب عينيه فى مهماته وشئونه يقدّم العبد إمامه ركعتين، ثم يأتي بالدعاء بعد ذلك، وهو أن يقول[1]: اللهم إني أستخيرك بعلمك وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم فإنك تقدر ولا أقدر وتعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب: اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر ويسميه خيراً لى فى دينى ودنياى ومعادى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاقدره لي ويسره لى ، ثم بارك لى فيه وإن كنت تعلم أن فى ذلك الأمر شراً لى فى دينى ودنياى ومعادى ومعاشى وعاقبة أمرى وعاجله وآجله فاصرفني عنه واصرفه عني واقدر لى الخير حيث كان برحمتك يا أرحم الراحمين: اللهم رضنى بقضائك وعافنى من بلائك، وأوزعني شكر نعمائك، واجعل اللهم رغبتى فيما لديك وراحتى عند لقائك" . فإذا أراد العبد أن يستخير بدعاء الاستخارة فى كل يوم فى أمور قد تعرض له ولا يعلم فليقل عند قوله: اللهم إن كنت تعلم أن فى هذا الأمر يقول بدل ذلك: اللهم كل أمر عزمت عليه ونويت فعله من سائر الأشياء والأمور فى هذا اليوم: اللهم إن كنت تعلم أن فى ذلك خيراً لى فى دينى ودنياى ومعادى ومعاشى وعاقبة أمرى ثم يتم الدعاء كما تقدّم، وعليك أيها الأخ بالصلاة بين العشاءين فإنه وقت عزيز ينبغى أن تحافظ عليه وتلزم المسجد فيه والصلاة والقراءة والذكر.

صلاة الليل وفضلها

وعليك أيها الأخ بصلاة الليل فإنها مباركة مجربة النفع، وهى دأب الصالحين لا ينبغي للعبد أن يتكاسل عنها فيذهب عمره ضياعاً فليصلّ العبد

(١) حديث الاستخارة رواه البخارى وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه وأحمد .

ولو ركعتين كيلا تستولى عليه الغفلة، فإن اليسير من الخير له موقع لا ينبغى أن يهمل لاسيما إذا أديم عليه، وافضل صلاة الليل بعد النصف الأخير لاستيلاء النوم على الناس فى هذا الوقت لاسيما وقت السحر، فقد وردت فيه الأخبار، فليقم العبد فى هذا الوقت العزيز بكليته إلى الله تعالى وليغتنم الدعاء فإنه وقت إجابة، فإن لم يوفق لقيام شىء من الليل فأقلّ الأحوال أن ينتبه من طلوع الفجر الأوّل وإلا فالثانى، ثم يشتغل فى هذا الوقت العزيز اليسير بالتسبيح والتحميد والتهليل والتكبير والقراءة يديم ذلك إلى طلوع الشمس بعد أن يصلى الصبح فى أوّل الوقت، فإن أهل العلم بالله لا يهملون الحال فى هذا الوقت، فإن أهمل العبد هذا الوقت اليسير أيضاً فليعلم أنه عبد مبعد عن ربه تعالى فلينتبه لنفسه وإلا استولت عليه الغفلة فيكتب من الغافلين.

وكذا ينبغى لك أيها الأخ أن تختم نهارك بذكر الله تعالى تسبيحاً وتقديساً واستغفاراً تستغفر الله تعالى وتتوب إليه عند انقضاء النهار من كل ما فرط منك فى ذلك اليوم لا ينبغى للعبد أن يهمل ذلك فليحافظ العبد على هذه الأذكار، فإن لها تأثيراً فى إصلاح حاله ديناً ودنيا.

وينبغى لك أيها الأخ الصالح أن تقول فى صباح كل يوم: «بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء فى الأرض ولا فى السماء وهو السميع العليم ثلاث مرات»، فقد ورد فى الحديث عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم "أنها تصرف الأمراض عن قائلها" فليكن هذا الذكر أيضاً من الإنسان على ذكر، فإنه أصل عظيم لا ينبغى أن يفوته صبيحة كل يوم، وينبغى لك إذا أردت أن تأكل طعاماً أن تقول: بسم الله الرحمن الرحيم، بسم الله خير الأسماء، بسم الله رب الأرض والسماء، بسم الله الذى لا يضر مع اسمه شىء

فى الأرض ولا فى السماء، فقد روى عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال« من قال ذلك على طعام لم يضره ذلك الطعام» وهذه الكلمات هى التى قالها خالد بن الوليد رضى الله عنه، ثم فتح فمه وقمح السم فلم يضره بإذن الله تعالى، وقصته مشهورة.

وينبغى لك أيها الأخ أن تدعو بهذا الدعاء فى صبيحة كل يوم، وهو الدعاء الذى دعا به قوم يونس وقد كاد العذاب ينزل عليهم فصرفه الله تعالى عنهم، والدعاء هو « اللهم يا حى يا قيوم يا حىّ حين لا حى يا حى محيى الموتى يا حى لا إله إلا أنت» ثم تدعو بالدعاء الذى دعا به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم الأحزاب" اللهم أنى أعوذ بك وبنور قدسك وعظمة طهارتك وبركة جلالك من كل آفة وعاهة، وطارق الليل والنهار وطارق الجن والإنس إلا طارقاً يطرق منك بخير يا رحمن: اللهم أنت غياثى فبك أستغيث، وأنت عياذى فبك أعوذ، وأنت ملاذى فبك ألوذ، يا من ذلت له رقاب الجبابرة وخضعت له أعناق الفراعنة أعوذ بجلال وجهك وكرم جلالك من خزيك وكشف سترك ونيسان ذكرك والإضراب عن شكرك، أنا فى حرزك وكنفك وكلاءتك فى ليلى ونهارى ونومى وقرارى وظعنى وأسفارى وحياتى ومماتى، ذكرك شعارى، وثناؤك دثارى، لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك ؛ تشريفاً لعظمتك وتكريماً لسبحات وجهك أجرنى من خزيك ومن شر عبادك واضرب علىّ سرادقات حفظك وأدخلنى فى حفظ عنايتك وجد علىّ منك بخير يا أرحم الراحمين».

وينبغى لك أيها الأخ أن تستدفع شر من تخاف شره بالكلمات التى وصى الله تعالى بها موسى عليه السلام أن يقولهنّ عند دخوله على فرعون، وهى «لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب

العرش العظيم الحمد لله رب العالمين : اللهم إنى أدرأ بك فى نحره وأعوذ بك من شره وأستعينك عليه فاكفنيه بما شئت » فقالها موسى عليه السلام عند دخوله على فرعون فنقل الله الرعب من قلب موسى إلى قلب فرعون وبدّله أمناً . فإن أراد الإنسان أن يستعيذ من مطلق الشر من غير أن يكون مخصوصاً من أحد بعينه فليقل فى صبيحة كل يوم فى جملة الأذكار التى تقدّم ذكرها «لا إله إلا الله الحكيم الكريم سبحان الله رب السموات السبع ورب العرش العظيم الحمد لله رب العالمين.

اللهم إنى أعوذ بك من شر كل ذى شر وأدرأ بك فى نحره وأستعينك عليه فاكفنى شر كل ذى شر بما شئت وكيف شئت وأنى شئت يا أرحم الرحمين» ، ففى الخبر الصحيح عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم « أن من قال هذه الكلمات دفع قضاء السوء» ، وينبغى لك أيها الأخ أن تختم أذكارك التى تقدّم ذكرها بالأسماء العزيزة التسعة والتسعين اسْمًا ، وهى هذه :

هو : الله - الذى لا إله إلا هو - الرحمن .الرحيم .الملك .القدوس .السلام . المؤمن. المهيمن. العزيز . الجبار. المتكبر. الخالق. البارئ . المصوّر. الغفار. القهار. الوهاب. الرزاق . الفتاح . العليم. القابض. الباسط. الخافض .الرّافع. المعز. المذل. السميع. البصير. الحكم. العدل. اللطيف. الخبير. الحليم. العظيم .الغفور. الشكور. العلىّ. الكبير. الحفيظ. المقيت. الحسيب. الجليل. الكريم. الرقيب. المجيب. الواسع .الحكيم . الودود .المجيد .الباعث. الشهيد. الحق .الوكيل .القوىّ. المتين. الولىّ . الحميد .المحصى. المبدئ. المعيد. المحيى. المميت. الحى. القيوم .الواحد. الواجد. الماجد. الأحد. الفرد. الصمد. القادر. المقتدر. المقدّم. المؤخر. الأول .الآخر. الظاهر. الباطن. الوالى. المتعالى. البرّ. التوّاب. المنتقم. العفوّ. الرءوف.

مالك الملك. ذو الجلال والإكرام. المقسط. الجامع. الغنى. المغنى. المانع. الضارّ. النافع. النور. الهادى. البديع. الباقى. الوارث. الرشيد. الصبور.

الذى ليس كمثله شيء وهو السميع البصير. نعم المولى ونعم النصير. والحمد لله رب العالمين.

وهذه أخبار وآثار منقاة جمعناها لسالكي طريق الحق، فليتدبرها الواقف عليها. وليتأدب بآدابها فإنها كلمات عزيزة نفيسة، فمن ذلك ما روى أنس بن مالك رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «لا أجر لمن لا خشية له، ولا عمل لمن لا نية له»[1]. وعن أبيّ بن كعب رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «بشر هذه الأمة بالسنا والنصر والتمكين، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة نصيب»[2] وعن حبيب بن صهيب رضى الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «ما تقرّب العبد إلى الله تعالى بشيء أفضل من سجود خفيّ»[3] وعن عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: إنكم لتغفلون عن أفضل العبادة التواضع، وعن الحجاج بن شداد أنه سمع عبد الله ابن أبى جعفر، وكان أحد الحكماء يقول في بعض قوله: إذا كان المرء يحدّث فى مجلس فأعجبه الحديث فليسكت، وإن كان ساكتاً فأعجبه السكوت فليتحدث.

أيها الأخ السالك هذا يعلمك كيف تنفى العجب عنك فإنه خلق ذميم، فيصير الإنسان ممقوتًا وقد دأب فى العلم والعمل فاحذره فى جميع أُمُورك الدينية والدنيوية، وعن أبى ذرّ رضى الله تعالى عنه قال« أوصانى خليلى

(١) رواه البيهقي بلفظ: «لا عمل لمن لا نية له ولا أجر لمن لا حسبة له»

(٢) رواه أحمد والحاكم.

(٣) أخرجه العراقى فى المغنى عن الأسفار والهندى فى كنز العمال.

صلى الله عليه وسلم إذا صنعت مرقة فأكثر ماءها، ثم انظر إلى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منه بمعروف»[١] وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «إن الرجل ليتكلم بالكلمة ليضحك بها جلساءه يهوى بها أبعد من الثريا»[٢] وعن مالك بن دينار رحمه الله تعالى أنه قال:

مرّ عيسى ابن مريم عليه السلام ومعه الحواريون على جيفة كلب، فقال الحواريون: ما أنتن هذا الريح! قال عيسى ما أشدّ بياض أسنانه! يعظهم وينهاهم عن الغيبة، وعن أبى ضمرة قال: خطب أبو بكر رضى الله تعالى عنه الناس فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أنه سيفتح لكم الشام فتأتون أرضاً رفيعة تشبعون فيها من الخبز والزيت وستبنى لكم فيها مساجد فإياكم أن يعلم الله أنكم إنما تأتونها تباهياً إنما بنيت للذكر. قال معروف الكرخى رحمة الله عليه: احفظ لسانك من المدح كما تحفظه من الذم، وعن الحسن قال: كانوا يقولون: لسان الحكيم وراء قلبه إذا أراد أن يقول رجع إلى قلبه، فإن كان له قال، وإن لم يكن له أمسك، وكانوا يقولون: إن قلب الجاهل فى طرف لسانه لا يرجع إلى قلبه، ما أتى على لسانه تكلم به، وكانوا يقولون: مفتاح الملامة ترك المشورة، ومفتاح الوقوع فى الهلاك ترك العمل بالعلم، ومفتاح الراحة ترك الفضول، ومفتاح السلامة كظم الغيظ، ومفتاح البلاء ترك الدعاء.

روى أن موسى بن عمران عليه السلام قال فى خطاب للرب تعالى: رب اجعل بينى وبينك علامة أعرفها من رضاك، فقال الرب تبارك وتعالى: إذا

---

(١) رواه أحمد فى مسنده.

(٢) رواه أحمد وأبو نعيم وابن عدى.

ألهمتك ذكرى فذاك علامة على رضائى، وإذا أنسيتك ذكرى وخليت بينك وبين عدوك فذاك حين نسيتك. قال الفضيل بن عياض رحمة الله تعالى عليه: المؤمن قليل الكلام كثير العمل، والمنافق كثير الكلام قليل العمل. قال عمران ابن سليمان: بلغنا أن في آخر ما تكلم به أيوب عليه السلام حين شفى: إلهى قد علمت أن قلبى لم يتبع بصرى وأن لسانى لم يخالف قلبى وأنّ ما ملكت يمينى لم يكن يهابنى أن يكلمنى، وإنى لم أبت ليلة قط شبعان وجارى طاو إلى جنبى ولم يكن لى قميصان ولا رداءان، فقيل له من فعل هذا بك يا أيوب؟ فأخذ قبضة من تراب فوضعها على رأسه، ثم خر ساجداً لله تعالى، ثم قال أنت يا إلهى، روى أن الرب سبحانه وتعالى أوحى إلى عيسى عليه السلام « أن قل لبنى إسرائيل لا تدخلون بيتاً من بيوتى إلا بقلوب طاهرة وأبصار خاشعة وأيد نقية وأخبرهم أنى لا أقبل منهم دعوة ولأحد من خلقى قبلهم مظلمة ظلموها ». وقال بعض السلف: إن إبليس ليخاف من القلب الذى فيه ذكر الله كما يخاف العصفور من الحجر. قال إبراهيم الخوّاص: من شرب بكأس الرياسة خرج من إخلاص العبودية، عن أنس بن مالك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يحسن خلقه ولا يشفى غيظه وأن يودّ للناس ما يودّ لنفسه، لقد دخل الجنة رجال بغير أعمال، قيل: فبِمَ دخلوها؟ قال بالنصيحة لأهل الإسلام وسلامة الصدور " ، [1] عن معاوية بن صالح قال: قال داود عليه السلام: يا رب كيف لى حتى يحبنى البرّ والفاجر؟ قال يا داود إن كنت تحب ذلك فخالط الناس بأخلاقهم وزايلهم بعملك ولا تحلم عند السفهاء ولا تسفه عند الحكماء فإذا أنت فعلت ذلك أحبك البرّ والفاجر.

---

(١) رواه ابن عدى وابن شاهين والديلمى .

قال عريف اليماني : من إعراض الله تعالى عن العبد أن يشغله بما لا ينفعه . قال مالك بن دينار : إن الشيطان ليلعب بالقراء كما يلعب الصبيان بالجوز ، عن أبى سعيد الخدرى رضى الله تعالى عنه قال : أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام تزعم أنك لا تسألنى فإذا قلت ما شاء الله ، فقد سألتنى كل شيء . قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى : إن الله تعالى يحب العالم المتواضع ، ويبغض العالم الجبار ، ومن تواضع لله ورثه الله الحكمة ، وقال إبراهيم بن أدهم رحمة الله تعالى عليه : كثرة النظر إلى الباطل تذهب معرفة الحق من قلبك .

قال معمر بن سليمان : ما اجتمع قوم قط فلم ينصت بعضهم لبعض إلا رفعت بركة ذلك المجلس . قال أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه : القعود عند المريض بقدر ما يجلس الإمام بين الخطبتين . قال حكيم لبنيه : اغلبوا الناس بالخير ولا تغلبوهم بالشر . قال شرحبيل بن مسلم كان يقال : من أدرك منكم آخر الزمان فعليه بذكر خامل ، عن سهل بن عبد الله قال : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : ما خلقت خلقاً ينازعنى فى ملكى غير النفس ، فإن أردت رضائى فخالفها ، فإن النفس كالظل إن أنت رجعت عن هواها تبعتك كما أنك إذا رجعت عن ظلك تبعك ، قيل : أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام : إذا رأيت الفقراء فسائلهم كما تسائل الأغنياء فإن لم تفعل فاجعل كل شيء علمتك تحت التراب ، عن الحسن رحمه الله تعالى قال : وضع دين الله دون الغلوّ وفوق التقصير ، عن أسماء بنت عميس رضى الله تعالى عنها قالت : علمنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كلمات أقولهن عند الكرب : الله الله ربى لا

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وأحمد وغيرهم .

أشرك به شيئاً، عن سفيان رحمه الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «من كذب عليّ متعمداً فليتبوّأ مقعده من النار»[1] قال أبو حازم: إن الرجل ليعمل الحسنة ما عمل حسنة قط أضرّ عليه منها، عن الحسن: أن أبا الدرداء كان يقول: أكثروا من الدعاء فإنه من يكثر قرع الباب أوشك أن يفتح له، عن السيدة عائشة رضى الله تعالى عنها قالت: لا تديموا أكل اللحم فإن له ضراوة كضراوة الخمر، عن داود قال: قال إياس بن معاوية: من لم يعرف عيب نفسه فهو أحمق، قيل له ما عيبك يا أبا واثله؟ قال كثرة الكلام. عن سفيان عن شيخ من الأنصار قال: إذا أحببت رجلاً فى الله عز وجل ثم أحدث فلم أبغضه فلم أكن أحببته فى الله عز وجل، عن سفيان أن الحسن كان يقول: إن قوماً شمروا ثيابهم ووضعوا الكبر فى قلوبهم فتلقى أحدهم فى كسائه أشد فخراً من صاحب المطرف فى مطرفه، وعن ميمون بن مهران قال: كان المهاجرون إذا رأوا الرجل راكباً يمشى معه الرجال قالوا قاتله الله جباراً، وإن أول من مشى معه الرجال وهو راكب الأشعث بن قيس.

هذه آداب وحكم قد أودعناها هذا الكتاب، هديناك سلبها وكشفنا لك مكنونها، فكن ذا همة فى العمل بها وعليك بالصدق والنصيحة وتقرب إلى مولاك بمحاسن مراضيه تفتح لك أبواب الخير وتذوق لذة المعاملة ويتولى تقويمك وتسديدك، إنه ولى عباده الصالحين، وأوليائه المقربين، والحمد لله رب العالمين، وصلى الله على سيدنا محمد النبى الأمى وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه البخارى ومسلم وأصحاب السنن وأحمد وغيرهم.

الفهـــرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس

تابع الفهرس